الفصل الحادي عشر

حاجز هضبة طويق

١- وسط روافد وادي الدواسر:

أمضينا ليلة السادس من يونيو (حزيران) في غار صغير في جرف طويق، في الموقع الذي يخرج فيه مجرى سيول كميح من جانب الجرف وسط كمية من الحجارة الجلمودية الضخمة المتناثرة. سمت فوقنا صخرة شاهقة بلغ ارتفاعها ٥٠٠ قدم أو أكثر، وهي من حجارة جيرية مائل لونها إلى الحمرة وتغطي سطحها طبقة صفراء من الحجارة المتساقطة. كل هذا نتاج لفعل الطبيعة في عهود طويلة ممتدة. كان المشهد العاري حولنا يتغيّر من وقت لآخر بوجود شجرة سنط هنا أو هناك أو رقاع من نبات المرخ الغض، بينما كانت الأعشاب الخشنة تحاول جاهدةً أن تحيي ذكرى سيل مرّ يوماً من هنا.

كان إبراهيم ورفاقه حريصين على أن نعود سالكين المسار المطروق الذي اتبعناه في طريقنا للوادي. لكنني أصررت على اتباع طريق آخر فأذعنوا - بعد لأي - لرأيي تعزية لي عما فعلوه ضدّي بإبعاد جابر. لم أكن أهتم أيّ الطرق نسلك في طريق العودة طالما أنّه مختلف عن ذلك الذي أتينا عبره. كان هناك الطريق الذي يتتبع أطراف حاجز طويق من الناحية الغربية، وكان هناك أيضاً الطريق الذي يتسلق المرتفعات في الجانب العريض للهضبة، وتم اختيار هذا الطريق الأخير على زعم أنّه أقل إنهاكاً وأقل رتابةً من الآخر. وخلال الأيام الثمانية عشرة التي تلت، تسلقنا بجهد نحو قمّة الهضبة حتى بلغنا الرياض مجدداً. وتمكنت خلال الرحلة بالسؤال وبالملاحظة أن أربط بين الوهاد والمجاري المائية من جانب، وقنوات

تصـريف المياه الرئيـسة من جـانب آخر. لقـد سبق أن عـبرت المنطقـة في رحلة الذهاب، وكنت في حالات نادرة أرى ومضات من الإقليم الجبلي الواقع في جهة الغرب، ذلك الإقليم الذي شققـته أثناء رحلتي للبحر الأحمر في ديسـمبر (كانون الأول) الماضي.

كان الارتقاء لقـمة الهضبة عن طريق شـعيب الكميع الضيّق الشـديد التحدّر عملاً مـضنياً سبب كثيراً من التـعب لجمال القافلة المحملة مما سـبّب بطء الحركة. يبلغ عرض الممـر مئة ياردة أونحوها في بدايتـه،وهوالمخرج الذي تنزل عبـره مياه السيول باندفاع كبير نسبةً لشدّة التحدّر. ولكنّ هذا الممر يضيق بسرعة عندما تُضيِّقُ عليه الخناق حوائط صخرية. يتبع الطريق الذي سلكناه مجرى السيول نفسه إلاّ في موقعين اثنين حيث نُحِـتَ درج محفوف بالمخاطر فوق منحدرات صـخرية عظيمة تَهوي من ناحيتها مياه السيول لعمق أربعين أو خمسين قدماً.

وجـدنا في سفح إحـدى هذه المهاوي المائـية بركـتين تحمـلان ميـاه السيـول وتستكنَّان وسط صخور جلمودية عظيمـة. وقفنا على البرك قليلاً حتى تروّي إبلنا العطشى ولنمـلأ قرب الماء ولنحـتـفل بمذاق ماء السـيول العـذب البارد بعـد أيّام قضيناها مع مياه آبار الوادي المالحة. كانت الميـاه مخلوطة بالطين لكنها كانت جميلة الطعم. كان المهد الرملي للمجـرى مليئاً بالماء، وما كان ليحتـاج سوى لنبش يسير حتى يتدفق الماء. نهلنا من هذا الماء وعللنا ومـلأنا القرب وشربت الإبل من البرك الراكدة. بينما كنا نستقي لاحظت سطحاً أملس لأحد الألواح الصخرية الضخمة. كانت أبعاد اللوح الصخري عشرة أقـدام في عشرة وكان ملقىً بجوار إحدى البرك وبه نقوش ذات طابـع بدائي، لا بد أنها لم تكن شـيئاً أكـثر من بعض الأعـمال اليدوية لأعرابي عاطل أمضى بعض الوقت هنا، إذ أنها كانت نقوشاً خلواً من أيّ

معنى أو أهمية، ولكنها رغم هذا كانت مثيرة للفضول حقاً في بلاد تقلّ أو تنعدم فيها النقوش من أي نوع. لذا فإنها عندما توجد فإن التعرّف عليها سهل فهي وسم أو علامة لمقتنيات قبليّة. في هذه الحالة لم يستطع رفاقي أن يهتدوا لتفسير لهذه العلامات، ولقد قمت برسم عينات من هذه النقوش.

وقف تقدمنا ببلوغ جرف المهوى المائي الذي كان علينا أن نلتفّ حوله عبر طريق ضيق بطول سلسلة صخور نُحتت في الحائط في الجانب الشمالي للوهد، وكان كثيراً ما تعترضه الصخور التي تهوي عليه. آثرتُ أن أرتقي على قدميّ لقمّة المرتفع، وجلست هناك أرقب بقية القافلة تقتفي أثري. ورغم ما يبدو من عدم التناسق في شكله إلاّ أن الجمل لا يخلو من رشاقة وخفّة. لقد أعجبني منظر البعير المحمَّلة بالأمتعة ترتقي ببطء ولكن بثقة المرتفع المتثني الخطر. مرّت التجربة بسلام إلاّ من حادثة واحدة وقعت عندماكانت ستة من الإبل ترتقي المرتفع إذا وقف الجمل الثاني رافضاً التحرّك، وبالطبع احتجز من ورائه بقية الإبل. استدعى هذا الموقف الرافض للحيوان أن تقوم المجموعة بتعبيد للطريق بأن دفعوا نحوالهاوية بعضاً من الصخور الضخمة لتوسعة الممر مما أدّى لتحسّن طفيف في عرضه، ثمّ جرت محاولة ثانية لحثّ الجمل على التحرّك لكنه خطا خطوات قلائل ثم هوى بقوة على الأرض الصخرية من تحته. ولم يمنع محاولات الرفاق لحثّه على النهوض ومواصلة الارتقاء، ولكن اتضح لاحقاً أنه قد أصابه جرح داخلي عدوه من الخطورة بحيث عدّ الجمل عاجزاً عن مواصلة النضال، وبذا زُوِّدنا دون قصد بإضافة حقيقية لحصيلتنا من الطعام. صار لدينا لحم لم نكن لنتحصَّلَ عليه إلاّ مصادفة بالتقائنا مثلاً برعاة للخراف في تلك الأرض الجدباء التي كنا نمرُّ بها.

وبعد تخطّي هذه العقبة صار مهد الشعيب من الحجارة الصمّاء التي حفرت فيها السيول المنحدرة فجعلتها ملساء. كانت تتناثر هنا وهناك شجيرات السمر وأعشاب خشنة، وكان عرض الشعيب خمسين قدماً أو نحوها تَحُفُّهُ الكتل الصخرية ومن ورائها وقفت حوائط صخرية شديدة التحدّر لارتفاع بلغ ٢٠٠-٣٠٠ قدم فوق رؤوسنا.

ارتقينا الجرف التالي الذي كان يعلو هذا الجزء من الوهد دون كثير عناء وسلكناه عبر ممر متعرّج لارتفاع جديد يعلو موقع مخيم الليلة السابقة بثلاث مئة قدم وفقاً لجهاز قياس الارتفاعات الذي كنت أحمله. وهناك تحوّل الوهد لوادٍ عرضه مئتا ياردة، تحف به جوانب التلال ولكنه كان أقلَّ انحداراً من الصخور التي تركناها خلفنا، ولعلّ هذا المستوى لم يكن أكثر من مئة قدم في الارتفاع. هناك سلسلة تلال خفيضة في أعلى ذلك الوادي تفصل بين شعيب الكمع وشعيب الكميع وهووهد أكبر قليلاً من رفيقه، ويجري نحو الجنوب عبر متاهة متعرجة من الهضاب والتلال. هذه المتاهة هي جزء من طويق وتتاخم الجانب الشمالي من وادي الدواسر أي جزء العفجة من الوادي، وفي الجزء يصبُّ مجرى الكمع.

في هذه النقطة بلغنا أكثر المراقي خطورة، وهو ممرٌ ضيِّق يسير في اتجاه قمة أصابتها عوامل التعرية، قمّة لسلسلة تلال تُشبه الوتد تفصل بين وهدين. حاولنا في البداية الارتقاء بممر آخر يمرّ عبر جانب سلسلة التلال هذه، وكنّا تراجعنا عندما اكتشفنا أنّ جزءاً كبيراً من هذا الممر قد غسلته السيول تماماً منذ عهد قريب.

لم يكن الممر الذي سلكناه يختلف كثيراً عن ذلك، كان عرضه عشرة أقدام وله جوانب شديدة التحدّر من الجانبين وتعترضه في نقطة منه صخرة جلمودية

عظيمة لم تترك من الممر سوى قدمين على كلّ من الجانبين وبكثير من الحذر والصبر تمت قيادة الحيوانات عبر هذه العقبة إلى برّ الأمان، وبعد ذلك بدقائق بلغنا نصباً أقيم ليَسِمَ قمة الهضبة، لعلّها كانت على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، و ٥٠٠ قدم فوق موقع مخيمنا السابق.

لاحت أمام أنظارنا الآن مرتفعات مهجورة متموجة، وعلى البعد من ناحية الغرب بدا لنا السهل الرملي الذي عبرناه في طريقنا من الوادي. كانت صخور طويق العارية تحجب الأفق من الناحية الشرقية، بينما امتدّت هضبة طويق من ناحيتي الشرق والشمال يشققها عدد لا يُحصَى من الوهاد، تحمل تصريف مياه طويق نحو مجرى وادي الدواسر. أهم شرايين هذه المرتفعات هو شعيب المراغة ومنابعه على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال من هذه البقعة. يفصل هذا الشعيب بين وادي الدواسر ونظام تصريف مقرن.

أنخنا مطايانا هنا لنرتاح من عناء الصعود، ثمّ تابعنا المسير فوق تموّجات الهضبة اللطيفة عبر كثير من الشعائب[1] الصغيرة التي تجرى نحو الكمع في الأسفل. توقفنا قليلاً لتناول الإفطار في أكبر شعيب منها: شعيب مظهورة، عندها ألقيت النظرة الأخيرة على السُّلَيِّل.

خفّت حِدّة الارتقاء ونحن نسلك الآن طريقاً شمالياً نحو سلسلة تلال خفيضة تسمّى خُتَيّم الخنقة، وهلّل رفاقي فرحاً عندما لاح لنا العرفج، ذلك النبات الذي يقال إنه لا ينمو إلاّ شمال الوادي. ألهبت الشمسُ القفارَ بأشعتها الحارقةَ ولمع المكان بانعكاس ضوء الشمس من آلاف البلورات التي تغطي سطح الأرض.

(١) تسمى: شعَيب سمْير، وأم الطول، ووعرة، وأثيبة، وشُقَيْب وأخريات. (المؤلف).

وبالرغم من وجود نسمة شمالية باردة مستقرّة إلاّ أننا سعدنا عندما حان وقت الوقوف للمقيل.

تابعنا سيرنا بعد الظهر منحدرين أسفل منحدر لطيف نحو الشرق بين سلسلة تلال ختيِّم ومرتفع آخر من خلفه أكثر منه انخفاضاً قادنا إلى شعيب سديرة حيث توقفنا للمبيت بالقرب من برك الخنقة وهي صدع صخري عميق. كان ارتفاع جوانب الصدع حوالي أربعين قدماً، وكان مهده مكوّناً من ألواح صخرية عظيمة صارت ملساء لكثرة مرور مياه السيول عليها. أمّا عرض المهد فهو يقارب ثلاثين ياردة وتغطيه النباتات بوفرة تشابه وفرتها في المناطق المدارية. كان أهم هذه النباتات (الشفلح) بثمرتها الغريبة المتدلية التي تشبه الباذنجان شكلاً رغم أنّ لونها عند النضج يميل إلى الحمرة، وتحتوي الثمرة على بذور كثيرة سوداء تستكنُّ في اللب الأبيض للثمرة، وهو الجزء الذي يؤكل منها وله طعم لاذع كطعم الخردل، إلاّ أنه مستساغ. لاحظت وسط الشجيرات الأخرى وجود وهط للمرة الأولى منذ أن غادرت الرياض متوجهاً نحو الجنوب، والوهط شجيرة ذات أشواك تُشبه المخالب.

تتوزع برك الخنقة- وعددها ثلاث عشرة بركة - على مسافة طولها قرابة الميل من مصدر الشعيب الذي يجري في اتجاه الشرق لمسافة ما قبل أن يغيّر اتجاهه نحو الجنوب ليلتقي بعدها مع المجمع. لاحظت أيضاً أنّ الجروف في أدنى الشعيب أكثر علواً منها في أعلاه.

كانت البركة التي وقفنا بإزائها لقضاءالليل تقع في منخفض صخري عميق مساحته حوالي عشرين ياردة مربّعة بالقرب من منبع الوهد. وكانت البركة الثانية

وتسمّى جليطة تعامر ذات أبعاد أقل وغير منتظمة الشكل كسابقتها، طولها حوالي ٢٠ قدماً وعرضها ١٠ أقدام وعمقها ٥ أقدام، وهي عرضة للجفاف في فصل الصيف بينما الاثنتان الأخريان دائمتان. أما البركة الثالثة وهي الخنقة فهي ذات عمق بعيد واشتُهرت بأنها دائمة لا تنضب وشكلها مثلث متساوي الأضلاع، رأس المثلث في أعلى المجرى وضلعاه الآخران الطويلان تحدُّهما حوائط صخرية ارتفاعها ٥ أقدام فوق سطح ليس به ماء، بينما مهدها رملي على نفس المستوى مع مهد الشعيب وينحدر بلطف حتى حدود الماء. وكان طول هذه البركة حوالي ثلاثين قدماً وعرضها حوالي نصف ذلك.

كان لمشهد هذا الوهد الصغير مع نباتاته التي تنمو في إطار من الصخور العارية والبركة التي يضمُّها والنحل الذي يحوم حول النباتات المحيطة بالبركة، كان لهذا المشهد سحر خاص لن أنساه أبداً لأنه شيء من الأشياء الجميلة القليلة التي صادفتني خلال تجوالي في الجزيرة العربية. ولكم آسف وأعضّ أصابع الندم إذ لم تكن معي أفلام تصوير حينها، حتّى أوثّق بالصورة للآخرين صورة ما زالت حيّة في ذهني.

بعد عودتي للمخيم على أثر جولة بلغت فيها أسفل مجرى السيول وتلك البرك، وجدتُ رفاقي مسرورين غاية السرور. كان قد صدر في حق الجمل الذي وقع في الطريق قرارٌ بعدم صلاحيته لمواصلة الحياة، وصدر الحكم أثناء غيابي بدوافع لم تكن بيطرية محضة، وتبع ذلك تنفيذ ما يلزم. تمّ قطع تلك الرقبة الضخمة من الكتف إلى الكتف الآخر باسم الله، رأيت بعدها الأيدي منشغلة في العمل على الذبيحة وسط بركة من الدماء لطّخت الصخور. كانت الاستعدادات العظيمة تجرى على قدم وساق لإعداد العشاء، بينما كان إبراهيم وقليل من

الآخرين يجلسون حول النار يطعمون مُقَبّلات للوجبة وهي الكبدة المشويّة جزئياً على النار والتي ينثرون فوقها الملح. التحقت بالمجموعة وتناولت قطعة صغيرة لأتذوقها وأصابني -هذا الطعام الذي يظنونه مترفاً- بالغثيان. لقد كان خشناً وغير ناضج، ولكنهم كانوا يقيّمونه بلا شك كطعام فاخر، لذا اقتسموه بينهم بالتساوي. كان اللحم الذي تمّ طبخه جيداً، والذي قُدِّم مع الأرز طفرة عظيمة في مستوى وجباتنا إذا ما قورنت مع الوجبات الخالية من اللحم. ولكن في رأيي أنّ لحم الجزور ليس له ما يزينه ويُزكّيه إلاّ في غياب الأطعمة الأخرى. إنه خشنٌ وقاسٍ ومطاطي، وله نكهة منفرة قليلاً، رغم أنّ الحيوان الذي ذبح في هذه المناسبة بالذات كان جيداً مقارنة بما اعتدنا عليه من قبل، إذ كان «رباع» أي في عامه الخامس. وعلّق ابن جلهم قائلاً: «اليوم نحن محظوظون حقيقةً لأننا نستمتع بنعم الحياة البدوية الثلاث؛ «الأمان» إذ ليس هناك خوف من اللصوص في هذا المكان. وثانيها: الماء من البرك المحيطة، «والنعمة» الثالثة: هي اللحم الذي لم يكن متوقعاً الحصول عليه». بقي معنا اللحم لعدّة أيّام ونحن نسير في بلاد لم تكن بها خراف، والغزال الذي رأينا منه زوجاً عند اقترابنا من البرك كان كالأحلام.

يتراوح العمر الطبيعي للإبل بين خمسة عشر وخمسة وعشرين عاماً، ويحسب العرب زمن الجيل الواحد بين زواج جيلين متعاقبين من العائلة نفسها. إذ أن الجمل الذي يُعطى في مقتبل العمر كهدية زواج، يفترض أن يبقى في خدمة صاحبه حتى زواج ابنه، ويعد عمر ثلاثين عاماً حداً أقصى لأعمار هذه الحيوانات التي تنجب إناثها عشرة أو اثنتي عشرة مرّة في دورة حياتها.

ابتداءً من هذه النقطة وحتى الحدود الشمالية التي يمكن أن نعدها مستجمع أمطار وادي الدواسر تنقسم مرتفعات طويق طولياً إلى جزأين محددين يختلفان

عن بعضهما كثيراً. يتكوّن الجزء الغربي من السطح المتموج بلطف للهضبة المهجورة التي تنحدر بلطف أيضاً من الجرف الغربي نحو الشرق. وما الجزء الثاني سوى متاهة من سلاسل التلال، ومن الوهاد العميقة التي تصب في المجرى العظيم: شعيب المراغة الذي يجري من الشمال إلى الجنوب حتى ينفذ من المرتفعات ليبلغ سهل السُّلَيْل تحت اسم المجمعة. إنّ الانتقال بين أحد القسمين إلى رفيقه يتم فجأة، وكان طريقنا يمتد بطول الخط الفاصل بينهما.

ما إن ارتقينا من مهد شعيب سديرة إلى مستوى الهضبة حتى هبطنا ثانية نحو الوهد العريض المسمّى أم الحُسَيَّة وهو رافد لسديرة، ويُقال إنّ به برك ماء في موقع ذلك الاقتران. ومررنا بعد ذلك بعدد من البقاع المعشبّة المكسوة بشجيرات السنط من فصيلة الوهط والكداد الذي يحمل الصمغ. توقفنا في الوهد الثاني للإفطار، وهو شعيب ثرار والتسمية تعود لجنبة تشبه السدر، ورغم أنّ هذه الجنبة من شجيرات الجنوب إلاّ أنها توجد هنا بكثرة مع أشجار السنط وكثير من الحشائش. هذا الشعيب الذي يجري منحدراً نحو المراغة- وهو أحد أهم روافدها- يبلغ عرضه سبعين ياردة وتحدّ الصخور المتعرية من جانبيه. ويتكوّن مهده من ألواح صخرية تتناوب مع رقاع من الرمال الناعمة.

مررنا بعدها بجرف منخفض ينحدر منه شعيب أم الحمام، ثمّ بلغنا مصدر شعيب النير ورأينا هناك بركة عظيمة يحفّ بها جرف يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، ويظلها جزئياً رفّ من الصخور. تسمى هذه البركة أم الحيشة رغم أن النخيل القصيرة التي اشتقّت البركة اسمها منها لم تعد موجودة في المكان. كانت مساحة البركة نحواً من ثلاثين ياردة مربّعة، ويقال إنّها ذات عمق عظيم، وتنحدر حوائط

الجرف مباشرة نحو طرف الماء من نواحٍ ثلاث، والجهة الرابعة هي منحدر مجرى الماء وكان مهد القناة مكسواً بغطاء كثيف من الأعشاب والبردي.

كانت هناك روافد أخرى[1] لشعيب النير تجري في هذا الموقع بالقرب من طريقنا. ولكن لم تعترضنا المياه بعد هذا حتى بلغنا وهد الحفنة وهو أيضاً رافد مباشر للمراغة. عرض الحفنة حوالي ثمانين ياردة، ويتكون مجراه بالتقاء عدد من مجاري التصريف الجارية عبر هضبة طويق، ويضيّق عليه الخناق جروف شديدة الانحدار، وبالوهد فجوات في أماكن متعددة وتعلوها رفوف صخرية فتبدو وكأنها كهوف، وهي تمنع وصول أشعة الشمس والأمطار للمحتمين بها من الرعاة الذين يأتون إليها كثيراً لسقيا قطعانهم، وللاستمتاع بالمقيل أثناء الساعات القائظة لفترة ما بعد الظهيرة. ولأدلّلَ على أنّ أجيالاً من الرعاة قد زاروا الموقع نفسه أقول أنني رأيت فرناً بدائياً يقوم على ثلاثة أثافٍ بالقرب من حائط صخري. تسمى مثل هذه الأفران محينذة، كما كانت تحيط بنا من كل جانب بقايا من عظام للحوم طَعِمَها أسلاف لنا زاروا المكان، وانتشر روث الشياه والإبل التي شربت ها هنا. هذه البقعة هي ملتقى رعاة فخذ السويلم (الوداعين) الذين يقطنون السُّلَيّل.

تابعنا سيرنا نحو الشمال في وقت لاحق بمحاذاة سلسلة التلال التي تكوّن الجانب الأيمن لمجرى المراغة. وكان المجرى يضيق كلما تقدّمنا من ناحية اليمين، ولكن قبل أن نصل للموقع الذي خيمنا فيه ليلاً، ظهرت سلسلة تلال أخرى بيننا وبين تلك السلسلة الأولى. كانت السلسلة الجديدة هي ختائم قرون، ولم تكن سلسلة تلال بالمعنى المعروف لها، لكنها كانت أقرب لروابٍ خفيضة مسطحة

(١) أم الحيِّشة وأبو نوميس. (المؤلف).

القمَّـة، وكان شعـيب قرون ينحـدر من خلفها نحـو المراغة. وقضـينا تلك الليلة بجوار إحـدى الروابي التي كنت قد ارتقـيت قمتـها قبل الغـروب وطالعت منظر المنطقة المجـاورة من فوقهـا لأرى الهضبـة العارية من جانـب والمتاهة والوهاد من الجانب الآخر.

تحركنا صبـاح اليوم التالي بمحاذاة روابـي قرون هابطين حتى مخـرج الشعيب نفسـه، وهو منخفض معـشب عريض، يبلغ عرضـه ٤٠٠ ياردة وجوانبه لطيـفة الانحدار. كانت مـجموعات من أشـجار السمر والسدر والمـرخ تتوزع في المجرى الذي كان مهـده مغطّى بألواح الصخـور ورقاع الرمال، كما هو الحـال مع معظم مجاري المياه في هذه المنطقة. وقالوا لي إنّ هناك بئر مـياه عمق الماء فيها على بعد أربع قامات فـي اتجاه أسفل المجرى، ولكنّ حافـة التلال حجبت عنَّا مـرآها. بعد هذا الوهد تابعنا مجرى رافد ضحل ينحدر إلى المجرى نفسه من جهة الشمال وهو دحلات البـقر. وفي المهد المعـشب لهذا الرافد مـررنا ببعض الغزلان وبكثـير من أسراب طائر الحجل[1] الذي يسمـيه العرب أيضاً «الدرج» ويبـدأ هذا المجرى من سلسلة جبال عرضـية صغيرة وهي تسم الحد الفاصل بين مجـرى التصريف المتجه جنوباً نحو وادي الدواسر والمجـرى الآخر الذي يتجه نحـو منخفض المقرن. ومن فوق أحد الروابي تطلّعت إلى المشـهد كاملاً، ولكنه كان مكرراً: هضبـة لا نهائية من جانب ومتاهة تلال لا حدود لها من الجانب الآخر.

(١) راجع الحاشية ص٣٧٣ . (المؤلف).

٢- مصادر المقرن:

كان مسارنا حتى هذه اللحظة يمرّ فوق قمة الهضبة نفسها باتباع الطرف الخارجي الغربي لصقع جبلي تصبُّ وهاده في شعيب المراغة. وهذا الأخير هو المغذي الرئيس لأواسط وادي الدواسر، وبناءً على هذا لم يكن اتجاه التصريف العام يسير في اتجاه الجنوب، بل في اتجاه الشرق نحو منخفض المقرن، الذي وصفت من قبل بركه العظيمة وامتداده الذي يشقّ صحراء البياض أثناء وصفي لرحلتنا عندما عبرناه ونحن في اتجاه الجنوب. كما أشرت من قبل فإنّ تصريف هذه الأجزاء من مرتفعات طويق- وهي التي دخلناها الآن - تصبّ في الوادي الذي يجري فيه مجريان هما الضبيعة والشُّطبة[1]. كان سيرنا الآن في أواسط الأجزاء العليا من هذين المجريين، تاركين سطح الهضبة - المسطح نسبياً- عن يسارنا ومتتبعين مجاريهما المحفورة بعمق نحو قلب الصقع الجبلي، في حين ران حولنا سكون القبور الذي لا يعكره سوى صدى أصواتنا.

كان منبع مجرى الضبعية يقع في بقعة كثيرة العشب على بعد ميل أو اثنين على يسار الوادي الذي نسير بإزائه على سطح الهضبة. هذا المنخفض المسمى مقوة الذي يجمع مياه تصريف المنطقة المحيطة من روافد صغيرة متعددة، بعضها من الأهمية بحيث تُطلق عليها أسماء مثل أم السُّلَيْم وأبو العشوش، بينما الأخريات بلا أسماء. تتبعنا مجرى منخفض مقوة الذي يجمع مياه التصريف ليدفع بها إلى الأمام من فتحة في جانبه الشرقي لتجري في مجرى سيول عرضه عشرون ياردة. هذا المجرى هو شعيب الضبعية الذي تتبعنا مساره المتعرج مارِّين بمناطق شجرية ساحرة تمتعنا بمشاهدها لمسافة ميل واحد أو نحوه حتى بلغنا رأس وهد صخري ذا عمق متوسط تصب فيه

(١) يقال لهذين الواديين الشطبتين. (المراجعان).

السيول في الموسم عن طريق اثني عشر منفذاً. وفي أحد هذه المنافذ وجدنا بركة ماء[1]، عرضها حوالي عشر ياردات ومهدها رملي، وتقع في سفح جرف منخفض.

صار سيرنا الآن فوق سطح وعر، لكنّه لم يشكّل لنا كبير عناء إذ كنا نهبط من فوق ركام من الصخور نحو وهدٍ يشبه لحدٍّ كبير وهاد طويق. كان مجرى الوهد من الصخور والرمال، عرضه حوالي خمسين ياردة، وأطرافه حوائط من الصخور الجيرية أصابتها عوامل التعرية فتركتها أشبه بالدرج، ترتفع لأربعين قدماً أو نحوها من الجانبين، وارتفاعها في الخلف أكبر. غطّى المهد كله بساط جميل من الأعشاب الخشنة تخفي تحتها الأجزاء الصخرية التي حبست حتى وقتنا هذا بقايا السيل السابق في شكل برك صغيرة من المياه الصافية، أعماقها مختلفة بعضها بوصات قليلة تغطّيها طفاوة خضراء من بقايا النباتات الخضراء التي تتمسك بوهن بالألواح الصخرية الملساء، وكانت المياه تتبخر من حولها. انتصبت وسط هذا المشهد الجميل مجموعة من النخيل المجمّلة بتمر كثير بيد أنّه كان أخضر وكان عليهم حصاده بعد شهر، وهذا يدلّ على أنه كان يوجد أحد هنا فيما مضى من شهور. قررنا أن نخيم للقيلولة هنا في ظلٍّ عظيم، وكان المكان جميلاً بحيث تحوّل المقيل إلى مبيت في ذات الموقع. وجدنا قريباً من كتلة النخيل عين ماء عميقة تغطيها جزئياً المخلّفات التي حملها السيل الأخير. كان المرشدون يعرفون هذا المكان باسم ثقيب وكنا قد وقعنا عليه صدفة بينما كان القرار أن نخيّم بجوار البرك المؤقتة[2] الأخرى التي كانت كافيةً لتأمين احتياجاتنا.

---

(١) تسمى «طيبات اسم». (المؤلف).

(٢) مثل هذه البرك تسمى الواحدة منها «ثقب» وجمعها «ثقبان»، الصحيح أن الجمع لها هو «ثقوب»، ولكن جريًا على طريقة العامة في الجمع فإن حرف الثاء يكون مسكنا وليس مضمومًا. (المراجعون).

هذا النبع هو مكان سقيا معروف لرعاة من السليل وهم آل حنيش وآل سويلم الذين كان وسمهم منحوتاً على أسفل سطح الجرف الصخري بصفته علامة لرغبتهم في إقامة مخيّمهم في هذا الموقع أثناء شهر رمضان الذي لم يكن بعيداً، وكذلك أثناء موسم خراص التمر الذي يلي رمضان. كان المكان للوهلة الأولى يبدو غريباً لمخيم قبلي يستمر لفترة طويلة، ولكنّ الحكمة في اختياره وضحت لنا صباح اليوم التالي عندما هبطنا أسفل الوهد، إذ رأينا ابتداءً من أول انحناء في الوهد وما بعد ذلك شريطاً طوله حوالي ميلين تصطفّ حوله بتقطع أشجار النخيل حول برك تتكرر بطول الشريط، ولا بدّ أنّ هذه البرك كانت منذ عهد قريب تكوّن مجرى مائياً متصلاً. كانت هناك حوالي ٥٠٠ من النخيل تعتمد على السماد الطبيعي التلقائي، بيد أنّها كانت قصيرة النمو، ذات مظهر غير معافى لكنها لم تكن مجرّدة من الإنتاج. بالطبع فإن النخيل التي يهتم الإنسان برعايتها وتسميدها تختلف عن تلك التي تنمو على السماد التلقائي. كان ذلك النخيل بحالته تلك يُشكّل إضافة جيدة لما يحتفظ به البدوي هناك من غذاء. واستحق هؤلاء البدو زراعة هذا النخيل هنا بوضع اليد، وإنه لمن المستغرب أنهم لم يحولوا هذه البقعة إلى واحة عظيمة معطاءة منذ عهد بعيد إذ أنّ مستوطنةً مثل الحوطة[1] لم تكن بداياتها خيراً من هذه فيما أفاد ابن جلهم الذي لم يكن يعرف هذا الإقليم الجنوبي أحدٌ خيراً من معرفته به.

كان الوهد في هذا الموقع أضيق منه إلى أعلى، كما كانت الجروف الصخرية على جوانبه أعلى، بيد أنّ عرض الوهد زاد حتى بلغ ١٥٠ ياردة بعد آخر حزمة من النخيل. كانت هذه النخيل الأخيرة محترقة السيقان مما يدلّ على حدوث حريق مَحلّيٍّ هائل. وكلما زاد عرض الوهد كانت الجروف الصخرية على جانبيه

(١) راجع المتن ص ٣٧٨ . (المؤلف).

تقل في الارتفاع، حتى بلغنا فناءً فسيحاً في موقع التقاء شعيب سِري مع الوادي الرئيس. تركنا الآن هذا الوادي يجري منحدراً عبر متاهة من الروابي المتراكمة الصخور ليلتقي مع رافد آخر هو شعيب خروم بعد أن يقطع سلسلة تلال تحمل الاسم نفسه. ارتقينا الأرض المرتفعة الواقعة على الشط الأيسر بطول حافة مجرى سِري، وكانت حينها سلسلة تلال خروم تجري بموازاتنا على بعد ميلين يميننا.

بعد مسيرة ربع ميل أعلى وهد سري وجدنا بركة ماء في سفح جرف صخري شديد الانحدار، ووجدنا جوار البركة عدداً من الإبل ترعى. كانت الدلائل تشير إلى أنهم من قحطان، وكان وسمهم على صخور الجرف المجاور لعين ثقيب، بالإضافة لوسم الدواسر. ولكننا لم نر حولنا أثراً لمرافقي تلك الإبل. لا بدّ أن نشير هنا إلى أن تدخّل قبيلة في المجال المعروف لقبيلة أخرى يسمح به البدو فقط إن قدّمهم إليهم أحد رجال القبيلة، وهذا الرجل هو الذي يقوم باستضافة الزوار إنابة عن رجال القبيلة ويسمح ببقائهم بين أهله.

توقفنا في هذا المكان لتناول الإفطار، وكانت وجبتنا تحتوي على آخر ما تبقى لنا من لحم ذلك الجمل الذي انقضى أجله بالقرب من برك الخنقة ليمدّنا باللحم لثلاثة أيام كاملة.

قمت أثناء بقائنا في المخيم باستكشاف قمة إحدى النقاط في سلسلة تلال خروم الواقعة على ارتفاع ٣٠٠ قدم فوق سطح البحر. فعلت ذلك لأرى الإقليم من حولنا. ورغم أنّ المشهد كان يُغطّي مساحة عظيمة إلاّ أن منظر كتل المرتفعات كان رتيباً، دون أن تكون هناك معالم لتكسر الرتابة.

بعد أن عاودنا سيرنا بقليل، أنذرنا طامي بأنّه قد رأى مجموعة قَدَّرها بخمسة عشر رجلاً على الإبل. كانوا يسيرون عبر أرض غير معبّدة من خلفنا يتجهون نحو

الموقع الذي تناولنا فيه إفطارنا. تداول الرفاق في الأمر وسيماء القلق بادية على وجوههم، وتوصلا إلى أن تلك المجموعة - على أسوأ تقدير - هم أصحاب الإبل التي رأيناها ترعى، وأنهم عندما رأونا اختبؤوا في الوهاد حتى ضمنوا إخلاءنا للموقع، ولعلهم الآن قد ذهبوا لمكان مخيمنا ليتفحّصوا آثارنا، وسيتركونا - في غالب الأمر- وشأننا. ولكنّا زيادة في الحرص نقشنا رسم ابن سعود على الرمال وأسرعنا الخطى مبتعدين.

بعد مسيرة ميل آخر أو نحو ذلك، دلفنا إلى منخفض رملي ضحل بعرض ٢٠٠ ياردة، تغطيه الشجيرات بكثافة. كان ذلك شعيب المغرة، منبع ثاني أعظم الأودية في منظومة المقرن. تغيرت طبيعة الوهد ونحن ننحدر عبره إلى الأسفل. في البداية صارت الرمال تخلي السبيل تدريجياً لمهد صخري، وكانت تحدّه من الجوانب الصخور الجيرية، ثمَّ بلغنا مهبطاً حاداً نزلنا فيه خمسة عشر قدماً إلى أسفل جرف من الحجارة الجيرية وألواح صخرية بليت فصارت ملساء بتكرار مرور مياه السيول عليها. صار المهد الآن ذا طابع جَدُّ خشن تتخلله صخور جلمودية ضخمة في غير ما اتساق، بينما ارتفعت الجروف الصخرية على جانبي المجرى لارتفاع أربعين قدماً. صار معظم الوهد الآن مكسواً بكثافة بالأعشاب وكثير من الأشجار مكتملة النمو في فصيلة البان[1]، وهي أشجار لم أرها قط من قبل، وهي وفقاً لإفادة رفاقي توجد فقط في مناطق قليلة تنحصر في الجوار تشبه الأثل في الشكل والأوراق لدرجة كبيرة ولكنها في الحقيقة تختلف عنه في ثمرته الكبيرة، الثمرة قُرنَة كبيرة جداً وتحتوي على حبوب طويلة وذات حجم كبير يسميها العرب «زب البان» لتَشَابُهٍ في الشكل بينها وبين عضو الذكورة. إنّ متوسط طول هذه الحبوب اثنتا عشرة بوصة إلى ثماني عشرة بوصة. عندما أبديت

(١) الاسم العلمي لها: Moringa Peregrina Fiori . (المؤلف).

اهتماماً بهذه الثمرة تفرّق رفاقي ليعودوا منتصرين وبحوزتهم حبة طولها أكثر من قدمين.

توقفنا لعدّة ساعات أثناء اشتداد القيظ النهاري في منبعج عريض للوادي بجوار بعض البرك ذات الماء النقي الممتاز. كانت تحدّ البركة نباتات كثّة. ولسوء الطالع لم يكن اتّجاه الجروف الصخرية يفيدنا كثيراً لذا كان عليّ أن أسرع للاحتماء بخيمتي من وهج الأشعة الحارقة في الوادي الذي لم تكن تهبّ عليه نسمة. إذا انتظمت السيول في هذه المنطقة فإن هذه البرك تكون مستديمة وحتى في سنوات الجفاف فإن الماء يسهل الحصول عليه في هذه الأنحاء وذلك بنبش الرمال سطحياً في بطن المهد لعمق بوصات قليلة.

كان امتداد الوهد مزداناً بمثل هذه البرك وخاصة في موقع اقتران شعيب كلاوي به. وبعد ذاك الموقع مباشرة يجري المغرة نحو وهد مهبط، وهو وهدٌ عميق تحفُّه الجروف الصخرية بارتفاع مئة قدم أقل تقدير في هذا الموقع. ثم عبرنا فضاءً معشباً فسيحاً في خضم مشهد صخري عظيم تحفّ به الخضرة. وفي وسط هذا المكان تنتصب حزمةٌ عظيمة من النخيل، بيد أنها ذات مظهر بالٍ رغم أنّها كانت أكثر تماسكاً من نخيل ثقيب، بينما تناثرت في الأنحاء بقايا أكواخ حجرية قليلة، هي آثار مستوطنة قديمة تسمّى دلهام، التي كانت - هي ومستوطنة أخرى تسمّى الشطبة، على بعد خمسة عشر أو عشرين ميلاً أسفل الوادي تخصّان فخذ الخضران التابع لقبيلة الدواسر. لكنها كغيرها من هذه المستوطنات يهجرها أهلها من البدو تحت رحمة الطبيعة ولا يزورونها إلاّ أثناء موسم جمع محصولهم. كانت شجيرات القصب والسنط والطرفاء وجنبات أخرى تدلّ بعظم كثافتها على وفرة الماء الذي وجدتُ إشارات إضافية له في بئر في مبنى مهجور إذ كان عمق الماء فيها على بعد قامتين، كما وجدت الدلائل أيضاً على وفرة الماء في كثير من البرك الضحلة.

انحدر الجانب الأيمن للوهد بشدّة نحو المهد في هذا الجزء الذي بلغ عرضه ٣٠٠ ياردة، لكنّ الشط الأيسر كان سهل التدرّج، عبرنا من خلاله هذا الجانب باتخاذ طريق متعرج. وعند بلوغنا القمّة تتبعْنا أعلى الجرف المحدّ من جهة اليسار لأعلى مجرى مهبط. وفي أسفل وهد مهبط لاحظنا وجود عدد من برك الماء كان المنظر من خلفنا رائعاً مكوّناً من أراضٍ مرتفعة تجري فيها الوهاد عميقةً، بينما كان المشهد أمامنا رتيباً؛ هضبة ترتفع بتدرّج لطيف وتحدُّها سلاسل جبال بُنية اللون.

تتبعنا رافداً ضحلاً للشطبة ونحن نبتعد تدريجياً عن مجرى مهبط وكان اسم الرافد شعيب سرمان، ثمّ عبرنا الفاصل بينه وبين شعيب رحبة، وهذا الأخير يمثل الحدود الجنوبية لمرتفعات الأفلاج. وكوّنت سلسلة التلال التي تفصل الشعيبين المذكورين فاصلاً بين نظامين للتصريف، أولهما نظام تصريف المقرن، والآخر هو نظام المجاري المائية التي تشقّ سهل الأفلاج العظيم لتضيع في صحراء البياض.

كنا قد سرنا ما يكفي لذلك النهار، وقررنا أن نخيّم في منخفض ضحل لمجرى رحبة في صقع جاف ينبئ عن فشل موسم الأمطار هنا، في حين فاض الماء في مجاري الضبيعة والشطبة بما فيه الكفاية، عندما حللنا ضيوفاً على هذا الصقع شعر بمقدمنا ثلاثةٌ من الغزلان البيضاء التي أخلت المكان على الفور، فتبعها مبارك دون أن ينال منها وطراً. استقبلنا الهلال الوليد لشهر رمضان بعشاء يخلو من اللحم. كان طباخونا يعدّون ذلك العشاء حين انشغل الآخرون وأنا منهم بمراقبة السماء في ناحية الغرب بحثاً عن الهلال البازغ، الذي يعبّرُ مرةً في العام عن حب الله للإنسان. عندما غربت الشمس واختفت بالكامل عن ناظرينا لاح الهلال الرقيق من وراء ضباب أخضر. وبدأ شهر الصيام. وكانت تحية رفاقي لهلال الشهر الجديد قولهم «لا إله إلاّ الله»، وكان عدد كبير منهم سعيداً إذ بدأ شهر الصيام وهم على سفر.

٣- مرتفعات الأفلاج:

لابد أن نتحدث قليلاً عن الظروف المناخية التي سادت في هضبة طويق أثناء الأيام الأربعة التي انقضت منذ أن ارتقيناها من السهول الغربية، وعن تلك التي سادت أثناء الأسبوع الذي علينا الآن قضاؤه في ذلك الجزء من إقليم الأفلاج الذي أشرت إليه سابقاً [١] محدّثاً عن أنّه يقع بالكامل في ثنايا حاجز الهضبة. قد يتوقع البعض أنّ هذه المرتفعات التي تقع بين خطيْ عرض ٢١و ٢٣ في قلب صحراء يسودها طقس حار غير مريح على الأقل في شهر يونيو (حزيران)، حيث تكون الشمس في وسط النهار عمودية فوق الرؤوس. ولكن سوء الطقس الذي وطّنت النفس على أنّه ملاقينا لم يصادفنا، وأعود الآن لأتذكر الفترة التي قضيتها في هذه الأنحاء لأجد أنها كانت من أجمل الفترات من ناحية الظروف المناخية إذا ما قورنت بكلّ أيامي التي قضيتها في الشرق في أشهر الصيف.

كانت الرياح الشمالية تهب كل يوم بانتظام غير طبيعي على ظهر الهضبة، وكانت أكثر ما تكون الريح عنفواناً عندما تكون أشعة الشمس أكثر لسعاً. ولعله لهذه الظروف وأيضاً نسبة لارتفاع هذا الإقليم وللجفاف المطلق للجو أن صارت درجة الحرارة في حدود معقولة حتى في الساعات الأكثر حرارة أثناء النهار، بينما كانت تقلّ لمستوى غريب في الساعات التي تسبق بزوغ الفجر. لقد كانت أعلى درجة سجلتها أثناء هذين الأسبوعين هي ١٠٥° فهرنهايت، وكانت أدناها ٥٩°؛ بينما كان مقياس الحرارة يسجل بانتظام درجة ٧٥° فهرنهايت في الساعة العاشرة مساء.

هناك نقطة أخرى جديرة بالاهتمام وهي أنّ أعلى درجة سجلتها كانت في ذات اليوم الذي سجلت فيه أدنى درجة خلال الأسبوعين، وهذه الظاهرة الغريبة لم تكن

---

(١) راجع المتن صفحة ١٠٢ . (المؤلف).

وليدة الصدفة إذ أنّ القاعدة هي أنّ اليوم الذي يبدأ بدرجة حرارة منخفضة جداً ترتفع فيه الحرارة بعد الظهيرة لدرجة جدٌّ مرتفعة، بينما اليوم الذي يبدأ بدرجة حرارة معتدلة يتبعه نهار معتدل أيضاً. وكما سجلنا أعلى وأدنى درجات الفترة في يوم واحد فإنّ أدنى الدرجات العليا (٩٥ْ فهرنهايت سجلت في ذات اليوم الذي سجلت فيه أعلى الدرجات الدنيا (٧٣ْ فهرنهايت). ولا أظنني في حاجة لأن أقول إن الأيام التي لم تكن فيها فروق كبيرة في درجات الحرارة بين الفجر والظهيرة، كانت أجمل الأيام. كان متوسط الدرجات العليا في هذه الفترة ١٠١ْ فهرنهايت، بينما كان متوسط الدرجات الدنيا ٦٦ْ. كانت الرياح في العموم خفيفة، ولكن كانت من آن لآخر تهبّ علينا رياح شديدة وواجهنا في يوم واحد «السموم» وهي الرياح الشمالية الجافة الحارة. وهي التي يتوق إليها العرب في الموسم لأنها تساعد على نضج التمر.

كانت طبيعة الإقليم الذي مررنا عبره في اليوم التالي مختلفاً في بعض النواحي عن ذلك الذي عبرناه سابقاً. كانت الهضبة الواقعة إلى الجانب الغربي من مسارنا وحتى هذه اللحظة تنحدر بلطف إلى حدود صقع جبلي خشن، وتنصرف مياهه من خلال وهاد عميقة نحو السهل في الأسفل. ولكن ابتداء من هذا الموقع صار اتجاه تحدّر الهضبة نحو جرف ثانوي منخفض، ومن قمة هذا الجرف امتدّ رفٌّ مسطحٌ وعريض إلى حدٍّ ما حتى حافة الصقع الجبلي الذي تفرّعت منه المجاري مقاطعة خط سيرنا على أبعاد متفاوتة. إضافة لهذا كان هناك ميلٌ لتحدُّر الهضبة نحو الشمال. ونتيجة لهذا تكوَّن قمع محدد الشكل فوق وهد حرج العميق الذي تجد الهضبة من خلاله مصرفاً نحو السهل. لذا فإن رحبة وعدداً من المنخفضات الضحلة المشابهة؛ مثل دحلة سدير ودحلة الأرنب والطريفة وغيرها، لم تكن تصرّف مياه الهضبة الرئيسة، ولكنها كانت تُصرِّف مياه الحافة الشرقية للرفّ

الثانوي للهضبة. وكانت هذه المجاري تنساب بين سلاسل تلال منخفضة عبر صقع جبلي نحو شعيب الحنُّو، ومن ثمَّ تصل البياض.

سرنا في اليوم التالي لمسافة سبعة أميال في إقليم قاحل رتيب حتى بلغنا وهد الطريفة، وهنا صار سطح الأرض خشناً جداً، وكان الوهد نفسه قد هوى لمسافة خمسة عشر أو عشرين قدماً تحت سطح الوادي بين الجروف البالية. كانت تتخلل سطح الوادي ذي الحجارة الجيرية المحمرّة رقاع طباشيرية بيضاء ناعمة. كانت سلسلة التلال التي تقع من وراء هذا الوادي تفصل بين المجاري التصريفية التي لم تكن ذات أهمية تذكر، والتي كنا نقطعها في ذلك الصباح، وبين شعيب حرج. حولنا خط سيرنا نحو منبع هذا الشعيب باتباع مهد شعيب صخري آخر يسمى أم الدقة ولاحظت أنّ الصقع الجبلي الخشن الذي كان عن يميننا طوال هذا الوقت قد أخلى المكان فجأة لهضبة مزدوجة أحد شقيها ينحدر إلى أسفل بتدرج لطيف من الحافة الخارجية للجروف الصخرية الغربية، نحو سفح الجروف الصخرية الثانوية. ومن قمة الأخيرة يبدأ الانحدار مجدداً الطريقة نفسها نحو سهل الأفلاج. الفرق الوحيد بين الهضبتين أن الشرقية منهما تشقها - بعد فواصل - مجاري عميقة؛ وتصرّف مياه الهضبة الأخرى أيضاً في مواقع مختلفة لتحملها عبر الحاجز الثانوي.

كان الطرف الأدنى لشعيب أم الدقة ممهداً لوجود ألواح عظيمة من الحجارة الجيرية الملساء، وكان يقود لأعلى الجرف الهائل الذي لا بدّ أن المياه تصبّ عليه أثناء فصل الأمطار بكميات كبيرة. كان ارتفاع هذا الشلال لا يقل عن ٢٠٠ قدم، وكان لابد لنا أن نتخذ مساراً طويلاً بطول حافة المجرى لِنَجِدَ طريقاً نبلغ به مهد المجرى في الأسفل، واتّبعنا طريق مجرى ضيّق تتناثر فيه الصخور الجلمودية.

كان منظر وهد حرج من هذا المكان من أجمل ما رأينا، إذ كان جرفه الصخري الحاد الارتفاع يلقي بظلاله على واد ضيق، وكان بطن الوادي مغطّىً بالشجيرات وتتناثر فيه برك الماء يتلألأ ضوْءها تحت أشعة الشمس، وكان الوادي ينفتح في اتجاه الشمال ليقود نحو سهل الهدّار الذي تكاد تحيط به حوائط من الصخور.

منذ أن غادرنا الراكة في أطراف وادي الدواسر قبل خمسة أيام لم نحظَ بصحبة بخلاف أفراد مجموعتنا ، ولم نرَ أثراً لإنسان سوى اللمحة الخاطفة للمجموعة البدوية التي سببت لنا لحظات من القلق في اليوم السابق. ولكن رأينا الآن هناك في الأسفل تحتنا، رأينا ونحن نقف للحظات لمشاهدة المنظر ولإعداد القافلة للمهبط الصعب خياماً سوداء وقطعان بيضاء ورعاة. وشعرنا بالسرور لاقترابنا مرة ثانية من بني البشر. كانت المجموعة من فخذ السرور التابع لقسم المساعرة الدواسر الذين يسكنون الهدّار.

حالما بلغنا القاع وتخيّرنا موقعاً ظليلاً للنزول في جوار إحدى البرك غير المطروقة، تقدّم وفدٌ من الرفاق للالتقاء بالرعاة ليعودوا بعد حين ليس فقط بالأخبار -ولم يكن هناك الكثير منها - ولكن بما كان الجميع يتوقون إليه: لبن طازج واثنتين من الماعز لعشائنا.

لم نكن الآن نبعد عن الهدّار أكثر من خمسة أميال، وخفَّفْنا بعض الشيء من العجلة، ولكنّا تابعنا المسير بعد فترة الظهيرة نازلين أسفل الوهد. مررنا ببركة إثر أخرى، وبجوار كلٍّ مخيّم صغير وقطيع من الشياه والماعز حتى بلغنا قصراً محطماً وبه بئر في الموقع الذي يلتقي فيه وهد حامد العريض مع شعيب حرج الذي انبعج الآن ليصير سهلاً دائرياً عريضاً. سرنا عبر هذا السهل نحو نتوء من الجرف

الصخـري في الجانب الأيمن، ولاح لنا عن قرب، في الزاوية الحـادة التي يكوّنها التقاء صخور واحـة الهدار الشاهقة. لقد كانت الواحة بقعة خضـراء جميلة يلفُّها احمرار الصخور المحيطة بها.

كان يجـري خلال الواحة شـعيب رملي عريض، ونصـبنا خيامنا على جـانبه الأيسـر بجوار واحـدة من القرى الأربع التي تكـوّن المستـوطنة القابعـة في وسط بساتين النخيل. تغطي بساتين النخيل مساحـة كبيرة في واحة حرج وكذلك مزارع الحبوب وتنقسم البساتين والمزارع إلى أربعة أقسام محددة تحتل كل قرية قسماً منها. تمكنت من إلقاء نظـرة فاحصة على المنـطقة بكاملها من فـوق إحدى الروابي التي انتصبت في السهل على بعد ميل واحد شمال مخيمنا، كما وجدت الفرصة لأشق الواحة راكباً حتى طرفها الشرقي قبل أن نخلد للراحة مساءً.

تقع قـريتان ومـا يخصُّـهـما من بسـاتين النخـيل على الجانب الأيمن لمجـرى السيول، بينما تقع بقية القرية على الجـانب الآخر للمجرى. تتكون المنطقة الواقعة في أقصى الغرب من حوالي سبعة بساتين غـير جيدة ومثلها من القصور ولا يمكن أن نعدها قرى صغيرة إلاّ بصعوبة، ولكنها تُعرف وحدة القبيلة التي ينتمي سكانها إليها، وهم فخـذ آل خليف التابع لقسم الوداعين، وزعيمهم فيـصل بن محتاج. هذا الجزء من الواحة يقع على الجانب الأيمن للمجـرى كما هو الحال مع المستوطنة التي تلي من ناحية الشـرق: المصارير، وتتكوّن هذه من مجموعة جـيدة وغنية من بساتين النخيل الكثيفـة التي يبلغ عددها حوالي خمسة عشر وينمو تحـتها كثير من النباتات المعـترشة وأشجار الفـاكهة وتتوسط القـرية التي تتناثر فيها القـصور حول المزارع. وتعداد السكان بهذه القرية لا يتعدّى ٣٠ نسمة وزعيمهم مهمل بن فهيد، كما يمكن تقدير سكان آل خُـليـّف بمئة نسمة.

مجـرى السيول الذي يبلغ عرضـه ٤٠٠ ياردة في المتوسط يكوّن حداً فـاصلاً بين سكان الواحة المنقسمين إلى قسمين هـي الدواسر من جانب وعناصر من قبيلة عنزة من الجانب الآخر. وتحتل عناصر عنزة القـسمين الأخيرين من المنطقة وأمرهم جدير بالاهتمام إذ أنّ بقاءهم في هذا الموقع يعود بنا القـهقرى للعهود القديمة التي كانت تحتل فـيها عنزة إقليم الأفلاج وهو أمـرٌ ذكرته من قبل[1] في سردي لتاريخ بديعة. أخذت القـريتان النتيفات والفـحيْل اسميهـما من قسمَيْن لفـرع جميلة من قـبيلة عنزة وهـم سكانها. ويبلغ تـعداد السكان بكلٍّ مـن القريتين حـوالي ٢٠٠ نسمة. بالطبع سادت روح العداء مع جيرانهما. وكانوا حتى وقت قريب لا يكفُّون عن المناوشـات والاحتراب، خـاصة النتـيفـات والمصارير، ولكن بعـد تدخّل ابن سعود، واتخاذ إجراءات تمنع التشاحن، عرفت الهدّار طعم السلام ونعمت به لعقد من الزمان حتـى الآن. تخيّرنا موقع مخـيّم الليل بالقرب من قرية النتـيفات تحت حماية زعـيمها ضـافي بن نوشان والذي عُرف عنه نفـاذ سلطته على كل العنزيين بالواحة. وأقرّ بسلطانـه أيضاً عبدالرحمن بن مـعير زعيم الفحـيل. كانت بساتين نخيل الفـحيل لا تعدو أربعة أو خـمسة، ولم يكن مظهـرها منتظماً، ولكن هناك وفرة من الأثل في المنطقة. بينما يتكوّن جزء النتيفـات من مساحة مزروعة مشابهة للمصـارير بما في ذلك قصرين اثنين وبسـاتين نخيل على الجانب الأيمن للمـجرى بالقرب من موقع سيادة المجموعة المنافسة.

تتنازع الهـدّار مع واحة الأحـمر على مـوقع السـيادة على مـستـوطنات هذه المرتفعـات، وهو موقع ذو صلاحـيات إدارية لجمـع الريع، وهو تحت إدارة حاكم

(١) راجع المتن ص١٥٤ . (المؤلف).

إقليم الأفلاج. يحوز سكان المستوطنات بالكامل على بساتين النخيل والرقاع الصالحة للزراعة، في حين أنّ رفاقهم من البدو لا حقوق أساسية لهم في هذه المصادر رغم أنهم كغيرهم من البدو يتجمعون في موسم خراص التمر في الواحة ولا يعودون بخفَّيْ حنين. هناك ضريبة مقدارها ٥٪ تحسب من كامل الناتج لمصلحة خزينة الدولة. وتسقى هذه البساتين جزئياً من مياه السيول التي يتمُّ تحويل مسارها بوضع حواجز خفيفة من جذوع النخيل وحطب الأشجار نحو مجارٍ مائية ضحلة. كما أنها أيضاً تسقى جزئياً بسحب الماء من الآبار في أعالي القرية. إن الآبار في هذه الأعالي أعمق منها في أسفلها، ويختلف عمق الماء في كلا المجموعتين بين موسم وآخر، وقد يبلغ فرق العمق بين المواسم قامتين.

بدأ الآن شهر الصيام، وعانى سكان الهدّار - كما هو الحال في كل مكان - من صعوبة الصوم في الأيام الأولى، وهو أمر يستمر حتى يعتاد الناس على الامتناع عن الشهوات، خاصة الامتناع عن شرب الماء في موسم كهذا. لذا لم يكن للسكان فائض من طاقة ليشغلوا همهم بنا. ينتهي صيام اليوم مع سماع أوّل نداء لصلاة المغرب، ولكن هناك الكثيرين وسط السلفيين ممن ينتظرون حتى سماع آخر جملة في الأذان قبل أن يفطروا. ولكن هناك أيضاً من لا يتشدّد إلى هذا الحدّ. وعرُف عن كثير من المؤذنين أنهم يرفعون النداء وأكواب القهوة في أيديهم. يعفى المسافر شرعاً من الصيام، والتعريف الواسع للمسافر هو كل من كان بعيداً عن بلده وأهله، ويحتجُّ بأن النبي نفسه لم يَصُم بمكّة إذ كان بيته في المدينة. أولئك الذين يعودون لدورهم في نهار الصيام عليهم الإمساك عن الأكل والشرب فور وقوع أبصارهم على قراهم، وعند ركوبهم منها بقصد السفر عليهم مواصلة الصوم حتى تغيب ديارهم عن ناظريهم. لا يشمل المنع الطعام والشراب فحسب،

ولكن الرفث إلى النساء ممنوع أيضاً من قبل طلوع الفجر وإلى بعد مغيب الشمس. وعلى المسلمين الذين يتعاطون التدخين الامتناع عنه أيضاً لتلك الفترة في كل يوم من أيام الصيام. وبالطبع فإنّ السلفيين يعدون تدخين التبغ جريرة في كلِّ الأزمان.

لعلّه ليس خروجاً عن الموضوع أن نذكر شيئاً الآن عن موضوع الصلاة على إطلاقها في الأرض السعودية. يسمح للمسلم عند السفر أن يختزل أوقات الصلوات لتُصلَّى في ثلاثة أوقات، وذلك للتيسير، ولكن دون أن تلغى منها صلاة، رغم أنّ الاسم الذي يطلق عليها هو القصر. تؤدى صلاة الفجر في وقتها المعتاد وهو وقت إطلالة ضوء الفجر الصادق في السماء من ناحية الشرق، وليس الفجر الكاذب. هذا هو وقتها في السفر والحضر. ولكن للمسافر أن يجمع بين صلاة الظهر وصلاة العصر في وقت هو بالتقريب يتوسّط الوقتين الأصليين، أو أقرب للصلاة الثانية. وعند غروب الشمس لهم أن يجمعوا بين صلاتي المغرب والعشاء في وقت الأولى. ووقت هاتين الصلاتين مرتبط بمغيب الشمس أو باختفاء الأشعة الضوئية الناتجة عن الشمس.

الأذان لدى السلفيين مطابق للأذان المعروف لدى فروع أهل السنة الآخرين، مع عبارة تُضاف في نهاية الأذان السلفي هي «لا إله إلاّ الله»[1]. وبعد الأذان تصطفُّ جموع المصلِّين خلف خط في الرمال يحدد اتجاه صَفِّهم، ويُسمَّى «مسجداً» وبه انبعاج في الوسط يمثل المحراب أو اتجاه قبلة مكة. يؤم الإمام المصلين في الصلاة

(١) ليس هناك اختلاف وجملة «لا إله إلا الله» التي يختم بها الأذان ثابتة عند أهل السنة والجماعة ولم يتميز بها السلفيون عن غيرهم كما ذكر المؤلف. (المراجعون).

وهو يُختار عادة بحكم عمره أو موقعه أو علمه. وفي حالة رفاقنا كان ابن جلهم هو الإمام طوال الوقت. عندما يجتمع اثنان أو ثلاثة خلف الإمام يبدأ الأخير في إقامة الصلاة بترديد الأذان مرة ثانية بطريقة سريعة ويزيد عليه عبارة «قد قامت الصلاة» مرتين، ويلحق بالمصلين من لم يكن قد اصطفّ ابتداءً. تُصلى صلاة المغرب في السفر بنفس طريقتها في الحضر، وعند نهايتها يختتم الإمام بأن يردّد - ملتفتاً إلى يمينه تارة وإلى يساره تارةً - عبارة «السلام عليكم ورحمة الله» ويفعل المصلون فعله. وبعد لحظات تقف جموع المصلين من جلسة ختام الصلاة الأولى ليبدؤوا الصلاة ثانية، أي صلاة العشاء وتفاصيلها كالآتي.

يقف الجميع ويقول الإمام: «الله أكبر»، ثم يقرأ سورة من القرآن جهراً، وفي نهايتها- يردد المصلون«آمين» ويظلون واقفين فيقرأ الإمام جزءًا آخر من القرآن، وبعد ذلك يركع ويتبعه المصلّون، ويرفع من ركوعه قائلاً: «سمع الله لمن حمده» وينتصب بعده المصلون. ثم يهوي الإمام إلى الأرض ساجداً سجدتين مردداً: «الله أكبر» في كلّ حالة ثم ينتصب الإمام ثانية قائلاً: «الله أكبر»، ويتبعه المصلون في كلٍّ ما يفعل. يُعاد كلّ هذا الإجراء كما هو ثانيةً من بداية «السورة الأولى» وحتى عبارة «الله أكبر» الأخيرة. ثم يجلس الجميع صامتين لبضع دقائق وفي ختامها يلتفت الإمام كالسابق مسلماً بالجهتين كما فعل في ختام صلاة المغرب قائلاً «السلام عليكم ورحمة الله» بعدها يلتفت الإمام ليجلس مواجهاً المصلين وكلهم جلوس، وبعدها تتم بعض الهمهمات غير الواضحة منها ترديد ثلاث عبارات تمجّد الله ثلاثة وثلاثين مرة لكلٍّ، أي تسعة وتسعين في جملتها، يتبع هذا بعض السكون والاحترام للشعيرة، ثم يبدأ الحديث بطريقة عادية بين المصلين قبل أن يتفرَّقوا.

لقد رأيت أنه من الضروري أن أسجل نموذجاً لصلاة السلفيين كما لاحظتها، ليس لأنها تختلف عن الصلاة العادية التي يؤديها بقية المسلمين من السنيين، ولكن لمنفعة من يريدون أن يعرفوا إن كان السلفيون يصلّون كغيرهم أم لا. إن صلاتهم كصلاة غيرهم مع قليل من الاختلافات، ولكن اختلافهم الرئيس عن الآخرين هو في تصرّفاتهم، وهو أمر يختلف من شخص لآخر.

لقد عدنا الآن إلى المدينة، ولم تعد لدينا حاجة مُلحّة للجنوبيين الذين رافقونا حتى هذا المكان كحداة لركبنا ولقيادتنا في الاتجاه الصحيح فوق متاهات الهضبة التي لم تكن بها طرق محددة. وكان الغرض الآخر هو أن يجنّبونا شرّ الوقوع في أيدي القبائل التي ينتمون إليها. لذا فإنّه قبل أن نركب مطايانا في صباح اليوم التالي لنواصل سيرنا في اتجاه الشمال ودَّعنا ثلاثة أو أربعة ممن رافقونا، ولعلنا لا نقابلهم بعد ذلك أبداً. رافقنا طويرش بن قاسم وهو من الوداعين من أهل ليلى كقائد للقافلة ولكنه سرعان ما صُنِّف كرجل غير مرغوب فيه إذ كان عالة علينا، فافترقت عنه دون أيّ شعور بالأسى لفقده، بل كنت سعيداً بأنني لم أسمع بعدها حديثه الذي يخرج من أنفه ولكنته الغريبة، ولن أضطرَّ للاعتماد عليه للحصول على معلومات عن جغرافيا الإقليم الجنوبي، إذ أنني اكتشفت لاحقاً أنّه كان يخترع أسماء للأماكن وللمعالم الطبيعية الأخرى لئلا يعترف بجهله، خوفاً من أن يفقد ثقتي بجدواه وما يتبع ذلك من فقدان للمكافأة. كان الرجل في كلّ الحالات ساعداً أيمن لإبراهيم، وسيظل كلاهما من ضمن الذكريات السيئة لإقامتي في الجزيرة العربية. كان مبارك -قناص حيوانات الأيّل- رجلاً من طينة أخرى،

فودعته وأنا آسف لفراقه لأنّه كان طوال الوقت إلى جانبي وفي خدمتي دون كلل. وكان مستعداً ليقدّم لي كل المعلومات الدقيقة التي كان يعرفها في إطار منطقته التي لم يكن يعرفها أحد كمعرفته إيَّاها. وفوق ذلك ما كان مبارك يرفع صوته باحتجاج.

كنا قد اعتمدنا عليه في توفير لحم الغزال لنا من الطريق ولكنه في هذا التكليف جاءنا بكيس خاوٍ إذ أنّ الصيد أثناء السير بالغ الصعوبة، رغم أن الرجل لم يكن يكترث للإرهاق والنصب أو لبعد المسافة حين يتعلّق الأمر بمطاردة الغزلان، ولم يتسبب فشله في الصيد في تغيير لهجته الهادئة في الحديث وطباعه اللطيفة التي زرعتها فيه إقامته الطويلة في الصحراء.

ورغم أن شخصيته كانت محببة، إلاّ أنّ ثالثهم غطّى عليه، إذ كان ثالث المغادرين حسن بن غانم النهشلي القادم من أرض يام بنجران رجلاً ذا جاذبية آسرة أكثر من كلّ من التقيت بهم في أنحاء الجزيرة العربية كان هو وجمله «القعود العماني»[1] ذو النسل الرفيع خير ما وقعت عليه قافلتنا في رحلتنا هذه. كان قد تجاوز منتصف العمر بمقدار، وكان صوته موسيقياً هادئاً وكانت طريقته في الحديث والحركة آسرة، وهو ما كان يبدو لي دائماً كمثال للأخلاق العربية. لقد كان جَلَدُه الذي يتحمّل به المصاعب مدعاةً لحيرتي، لأنّه عندما قدم إلينا كان بجلد أحَد ساقيه جرح كبير بحجم قطعتين معدنيتين معاً. وكان المشي يسبب له ألماً وكان يقوم بنفسه بكيِّ جُرحه، عندما نتوقف، بقطعة حديد محمّاةٍ حتى الاحمرار. كان يكرر هذا كل يوم بشجاعة عظيمة ولكن دون نجاح، إذ أنّه فارقنا وجرحه على حاله

(١) القعود: الجمل الذكر ذو السنام الواحد. (المؤلف).

الذي قَدِمَ به إلينا. لقد سعدت بأنه-على الأقل- يمتطي قعوده الذي سيعود به إلى دياره، بينما كان مبارك وطويرش -اللذان كانا يركبان أثناء سيرنا رديفين لهذا أو ذاك من رفاقنا- كان عليهما أن يتدبّرا أمر عودتهما. ودَّعنا حسن قائلاً: « رافقتكم السلامة، وإن عاد بكم الله يوماً لهذه الأنحاء لا تنسوا أن تسألوا في السليل عن حسن بن غانم وسأريكم آثار المارية على الرمال». كان ردنا عليهم: «في حفظ الله»، ثم التفتنا لنتابع سيرنا بطريقة العرب.

سرنا في ذلك اليوم محاذين لحافة سفوح سلاسل التلال، وكانت الأراضي الرأسية للجرف الثانوي -وهي سلاسل شعب وفردة والطريفة وخَرْطم- تتتابع واحدة إثر أخرى على خاصرة الطريق الذي سلكناه. بينما كانت تقع إلى الغرب أراضٍ رأسية أخرى، أقصاها من ناحية الجنوب خشم عجبان وتليها حميمة ثمّ أمرخيّة في الشمال، والأخيرة هذه مجاورة لخشم خرطم. صار سطح الهضبة الآن وعراً جداً، تكتنفه أكوام من أراضٍ عارية مرتفعة. وعبر هذا المكان سرنا لأعلى وادي الدحلة الذي يجري منحدراً إلى حرج بجهة الطرف الأدنى من قرية الفحيل، بين سلاسل تلال شعب وفردة. انفصل طريق آخر عن طريقنا متجهاً نحو الغرب حال أن غادرنا الواحة ليجري بعرض الهضبة إلى جوار سلسلة تلال أمرخية، ومن ثَمّ ينحدر نحو السهل ليقطعه أيضاً. طول هذا الطريق هو مسيرة يوم، ويقود لأرض مالحة يذهب إليها أهل تلك المنطقة ليحفروا ويستخرجوا الصخور الملحية التي توجد بوفرة على عمق خمسة أقدام تحت سطح الأرض، ولعلها في منتصف نفود الدحي.

بعد أن تجاوزنا رابيتين صغيرتين منحنيتين بطريقة تدعو للإعجاب، متفرعتين من مرتفع شعب، سهل علينا السير فوق تربة الدحلة الطفلية الهيّنة. وفي بداية

مجـرى الدحلة أو لعله في أحد روافـده وهو شعيب النسق توقـفنا لتناول الإفطار تحت جرف فردة الصـخري شديد التحدر. وهكذا تابعنا السيـر علواً وهبوطاً فوق الأراضي المرتفـعة لنصل إلى جـبل خرطم الواقع علـى ارتفاع ٣٠٠٠ قـدم فوق سطح البحر. وكـان على أحد الجوانب جرف خشم خـرطم الصخري الذي ارتفع فوق رؤوسنا بمقدار ٣٠٠ قدم. هناك طريق مباشر يقود من الهدار إلى الأحمر من فوق خـاصرة الجرف الصخـرية التي كانت على جانبي طريـقنا، ويمرّ الطريق بعد ذلك من فوق الهضبة العالية، ثمّ ينحـدر بلطف بالقرب من الأحمر نفسها. ولكن هذا الطريق يناسب القـوافل التي لا تحمل أثقالاً، لذا كـان علينا أن نسلك الطريق الأسهل.

كانت سلسـلة الجبال التي تربط بـين جرف خشم خـرطم العالي وقـمة أرض أمرخـية المرتفعـة هي نهاية الهضـبة الخارجـية التي كنا نتـابع طوال سيرنا طرفـها الشرقي. ابتداءً من هذا الموقع صارت طبيعة طويق أكثر انتظاماً نحو الشمال. وبدا أن الهضبـة تميل بلطف نحو الشرق من النقطة الأعلى ارتفاعـاً بطول حدود الجرف الغربية. ولكن قبل أن نصل إلى تلك المنطقة كان علينا أن نقطع واحة الأحمر التي تمكنّا من التطلع إليـها بكاملهـا من خلال فرجـة في مرتفع خـرطم حتى طرفـها القصيّ بجوار الأرض الرأسيـة خشم عُشيْرة التي تشبـه أرض خرطم الرأسية. بين هذه المواقع يقع سهل يشبـه الإسفين شكلاً وتخطُّه وهاد وسلاسل تلال ورواب، ويستمـر في خطٍّ طوله حوالي عشريـن ميلاً بطول قمة الجـرف الغربي. يقع رأس هذا السهل الإسـفيني في واحة الأحـمر على بعد خـمسة عـشر ميـلاً شرق ذلك الخط، في النقطة التي تلتقي فيها مجاري مائية كثيرة وفي زاوية حادّة تتكوّن بالتقاء

جرفين صخريين أحدهما شمال شرق والآخر جنوب شرق الأراضي الرأسية خرطم وعُشيرة. بعد هذه النقطة سار طريقنا بطول سفح الجرف الصخري الصمان، أي بطول ضلعين من أضلاع مثلث السهل نحو أرض عشيرة الرأسية. وبعدها سرنا في اتجاه الشرق فوق طريق يشبه ممر خرطم، ثم بطول سهل عشيرة حتى سفح منحدر الهضبة وحافة سهل الأفلاج.

دعوني قبل أن أواصل أن أتناول وصف مشهد إقليم ما وراء طويق، وهو الذي لاح أمام أعيننا الآن عندما وقفنا على قمة ممر خرطم. وهو المشهد الذي رأيناه للمرة الأخيرة عندما سرنا فوق ممر عشيرة بعد يومين. كانت تجري أمامنا في اتجاه الشمال والجنوب على مَدِّ البصر، الحافة الوعرة للجرف الخارجي. وكانت تقاطع الإقليم -بعد فواصل- الكتلُ الضخمة للأراضي الرأسية: عجبان وحُميمة وأمرخية ووُعَيْرة ومصيفيح والجويفة والحصان[1]، كانت هناك في الشمال بعيداً عن عُشيرة. كان وراء ذلك الخط انخفاض حاد (٤٠٠-٦٠٠ قدم) نحو السهل في الأسفل، وكان هذا السهل شريطاً يبلغ طوله عشرة أميال من الصحراء ويلتقي مع نفود رمالها مائلة إلى الحمرة، لعلها جزء من نفود الدحي الذي يحدّه من الشمال وادي السره، بينما تتداخل حدوده الجنوبية مع وادي الدواسر نفسه. ولكن بعيداً هناك بين الرمال أو من ورائها لاح أمامنا هيكل معتم لسلسلة جبال عظيمة لا شك أنها السلسلة نفسها التي شاهدناها ناحية الجنوب عندما مررنا بطريق الحجاج في رحلتنا نحو البحر الأحمر. أقول هذا رغم أن التعرّف على القمم والسلاسل

(١) ذكر المؤلف بعض أنوف طويق، وقد عدد ابن خميس أشهر هذه الأنوف التي بلغت (٦٣) أنفاً، ابن خميس، معجم اليمامة، ج١، ص ١١٦-١١٨. (المراجعون).

الجبلية التي يراها المرء من زوايا مـختلفة هو أمر يعتمـد على التخمين وليس على اليقين، خاصة في بلاد الجزيرة العربية التي تتشابه معالمها الرتيبة. وفوق هذا فإنني لا أضع وزناً أكبر مما يستحق لإفادات من كانوا مصدراً لمعلوماتي في هذه المناسبة. أحدهم كان عـثمان وهو رجل من النتيفات تـعاقدنا معه لإيصالنا للحـمر، وكان رجلاً أميناً إذ حذرني أنّ معلوماتي عن تلك الأنحاء البعيدة التي لم يزرها مطلقاً، تعتمد علـى بيّنات سماعيّة لأعراب من تلك المناطق كـان يرافقهم على نفس هذه الطريق الأحمر. وأضـافَ أنّ معلوماته تلك لا تشبه معلومـاته عن المناطق القريبة التي وُلد وترعرع فيهـا. وكان الثاني فالح بن جهيم وهو معاون شـجاع من الحمر قضى نهاره صائماً أثناء السير الذي رافقنا فيه، غير مستجيب للنصيحة بأنّ مرافقته المؤقتة لنا تعـفيه من التزامات الصـوم. كان لفالح هذا معلومات أكـثر لتلك البلاد القصيّة التي سافر عبرها، لكنه لم يكن واثقاً من دقة المعلومات التي أدلى بها رغم أنّه أكّد لي أنّ جبل صـبحا العظيم لم يكن ليظهر من ممر عُشيـرة، وأنّ تلك القمة التي عرَّفها زميله بأنها لجبل صبحا لم تكن كذلك، بل كان جبل صماخ الذي يقع إلى الجنوب من الجفارة في سلسلة جبال الجد.

هناك احتمال كبيـر أن تكون سلاسل الجبال الجنوبية التي ترُى من هذه المواقع هي سـودة وحصاة قـحطان، ولعلّ هضب الدواسـر من بينها أيضـاً. في حين أن سلسلة التـلال المنخفضـة التي ترى من خلف النفـود مباشـرة قد تكون الامـتداد الجنوبي لمرتفعات (العـرض) التي تقع فيها القـويعية إلى جهة الشـمال الغربي من الحمر تقريباً؛ هـذا ما أفاد به دليلي. ومهما كان الأمر فإنه مـن المقبول أن نفترض أنني كنت أنظر في هذا الوقت إلى الشريط الجبلي العـظيم الذي رأيت سابقاً طرفه القصيّ من الناحـية الثانية من طريق الحـجاج في رحلتي السابقـة. وإن كان الأمر

كذلك فيمكن القول بأنني تمكنت من رؤية جيّدة من الجانبين لأرض شاسعة لم تكتشف من قبل، والتي لا بد أن نترك تفاصيلها لرواية رحّالة يأتون من بعدي.

تلتقي أهم مجاري المصارف المائية في طرف الأحمر، مكوّنةً وادي كرز، ثمّ تلتفّ لتكوّن وهد باطن الأحمر. هكذا يُسمّون المجرى ابتداءً من تلك النقطة حتى الخَرْفة والسيح في سهل الأفلاج الذي عبرناه ثمّ تتبعناه في رحلتنا الأولى. تتبعنا الآن مجرى وادي كرز وهو مجرى صخري تتناثر فيه الحصباء وينبع من قمة الحمر خرطم لينحدر متعرّجاً للأراضي المنخفضة تحته. تتبعنا مساره الوعر الضيّق إلى موقع صار فيه انحدار الشعيب أكثر لطفاً، ليجري بعدها شرقاً بطول الجرف الصخري في وادٍ عرضه في المتوسط نصف ميل، تغطيه بوفرةٍ النباتات والحشائش.

مرّت أيام عانت فيها مطايانا من السير المتواصل فوق أراضٍ وعرة في هضبة الصحراء التي تلهبها شمس الصيف، وأبدى كثير منها علامات الإرهاق، خاصةً لما أصاب أقدامها إذ أنّ أخفافها اللينة ذات قابلية للتقرح والتشقق عند السير فوق أسطح حارة، وما يتبع ذلك من اختراق شظايا صخرية صغيرة وحجارة في ثنايا الخفّ مما يسبب لها العطب ومن ثمّ العرج. تأثر كثير من الإبل بدرجة كبيرة، وبما أننا لم نكن في عجلة من أمرنا، وبما أننا كنا ننوي -على أيّ حال- أن نقضي يوماً بأكمله في الأحمر إن بلغناها في ليلنا ذلك أو في صباح اليوم الذي يلي، فلقد قررنا أن نؤجل دخول القرية إلى الغد وأن نستفيد من الوقت في تضميد جراح الإبل التي كانت ستنعم أيضاً بالمرعى الجيّد الثرِّ في الجوار. يكوّن كل وادي كرز، وكذا المنطقة التي تحيط بالأحمر احتياطياً جيداً لترعى فيه حيوانات أهل الأحمر الذين يُقال إنهم اشتروا الحقّ المطلق في الرعي في هذه الأماكن من أصحابها

السابقين وهم نتيفات الهدّار، وهؤلاء كانوا فيما مضى يسكنون المرتفعات في هذه الأنحاء، ولكنهم لا حقّ لهم الآن في المرعى دون استئذان من جيرانهم الذين صاروا الآن أقوى منهم. أمّا الجماعات المسافرة -سفراً حقيقياً- فإنهم معفيون من مثل هذا الاشتراط أي الاستئذان للرعي في «الحمى» أو مناطق «الحَظْر» كما يسمونها.

إنّ الطرق التي يستخدمها العرب لتطبيب الأخفاف الجريحة طرق بدائية حقّاً بيد أنها فعّالة ولا تسبّب الألم للإبل، إذ أنهم يرمون الحيوان الجريح على جنبه ويجذبون رأسهُ ليلتصق بظهره وهكذا يمنعون تحرّكه بالكامل. يأخذ المعالج قطعة صغيرة- في غالب الأحيان من جلد الإبل - ويأتي بخيط من نفس الجلد وإبرة كبيرة، ثمّ يخيطون القطعة الجلدية كرقعة على موقع الجرح بحيث يمنع دخول أي جسم خارجي فيه، وبمرور الوقت تتداخل الرقعة الجلدية لتصير جزءاً من الخفّ. تمّ علاج الإبل واحداً إثر آخر بهذه الطريقة ثمّ أطلقت لترعى. قام بهذه العمليات الجراحية طامي ورشيد اللذان أظهرا - رغم حبهما للراحة والدعة- في ذلك اليوم مقدرةً فائقة على تحمّل العمل الشاق المرهق في حرّ النهار القائظ من أجل المصلحة العامة. أمّا بقيّتنا فلقد استمتعنا بطول الاستجمام في هذه البقعة بعد السفر المتصل. وقضيت أنا فترة ما بعد الظهيرة بكاملها في خيمتي باستثناء نزهة قصيرة على الأقدام بلغت فيها قمة المرتفعات التي تكوّن الجانب الأيسر للشعيب، ووجدت حينها أنَّ المشهد كانت تسدُّه الهضبة المتموجة من جانب، والجرف الصخري لخرطم من الجانب الآخر.

سرنا صباح اليوم التالي فوق مهد الشعيب الذي تغطّيه الحصباء، وتوقفنا في بطن الشعيب لتناول الإفطار في موقع التقاء رافد صغير يسمّى أم الحمام وينزل من

المرتفعات الواقعة إلى يسارنا والتي صارت تنتظم الآن في شكل سلسلة تلال تجري موازية لصخور خرطم. كانت الأنحاء الداخلية لهذه السلسلة مكسوّة حتى القمة تقريباً بصخور متناثرة، ومن خاصرة هذه السلسلة نتأت رابيتان منحنيتان رائعتا المنظر تُسمَّيان معاً الفرايد. مشيتُ - بينما كانوا يعدّون الإفطار- حتى قمة السلسلة التي رأيتها ملأى بمحارات متحجرة وأصداف.

فجمعت كثيراً منها عينات أحضرتها معي لبلادي. تكرّرت معي تجربة مماثلة في اليوم التالي فوق قمة رابية تطلّ على ممر عشيرة، وأوصلت معي كل الكمية إلى الرياض بسلام حيث اضطررت بكلّ أسف أن أتركها من ورائي مع بقية أمتعتي الثقيلة عندما صحبت ابن سعود لافتتاح حملته ضد ابن رشيد في الشهر التالي، أي شهر أغسطس (آب)، وحيث إنّ أمتعتي - فرضاً- مازالت هناك إذ أنّ كل محاولاتي اللاحقة لاستعادتها بعد مغادرتي للجزيرة العربية باءت بالفشل.

لا بدّ إذن أن نؤجل الحكم على هذه المتحجرات في الوقت الراهن رغم أنه يمكننا أن نخمّن أنها تنتمي لنفس الحقبة الجيولوجية لتلك المتحجرات التي وجدتها في هضبة الطويق، شمال الرياض بالقرب من منبع وادي حنيفة والتي أحضرتها معي ليكشف عليها علماء المتحف البريطاني في مدينة ساوث كينزنقتون البريطانية، والتي تمّ تصنيفها على أنها تنتمي للعهد الجورسي.

كانت قد أجريت أيضاً في السابق بعض الفحوص على متحجرات أخرى وُجدت في مرتفعات اليمن بواسطة المجموعة نفسها. ولكن هذه - حسب علمي - هي المرة الأولى التي أحضرت فيها أي متحجرات من أي مكان في وسط الجزيرة

العربية[1]. ورغم أن داوتي وجد عدداً من الأدوات المصنوعة من حجر الصوان في شمال الجزيرة العربية إلاّ أنه يُسجّل أنه لم يجد أيّ متحجرات في تجواله.

عندما عاودنا المسير أسفل الوادي، لم يمض وقت طويل حتى مررنا ببركتيْ ماء صغيرتين في سهل عريض معشب رأينا فيه كثيراً من الأغنام الحمراء والسوداء من السلالات المحليَّة صغيرة الأحجام. وتوجد بالقرب من هذا السهل بقايا قصر قديم في وسط حيش[2] من النخيل القصيرة التي يعود تاريخها لعهد استقرار النتيفات في هذا الإقليم. بعد ذلك بقليل مررنا بقصر آخر على الشاكلة نفسها يُسمّى أم شجرة وبه بئر معطلة بها ماء نتن راكد على عمق قامة واحدة. في هذا الموقع كانت إحدى الفرائد تقع قريباً للجانب الأيسر حيث يضيق مجرى وادي كرز حتى يبلغ عرضه ربع ميل بين الفرائد وبين أراضي الزويرة المرتفعة التي كانت بروز من الجرف المقابل. ينحدر عبر وادي كرز هذا الطريق المباشر من الهدّار وهو ما يُعرف محلياً باسم الحريتة.

انتشر الآن إحدى روابي سلسلة تلال الفرائد بعرض طريقنا ليجعل عرض مجرى السيول بالغ الضيق. وارتقينا بسهولة منحدرات المجرى لنجد أنفسنا على قمته ومن تلك القمة لاح لنا مشهد مكتمل لواحة الأحمر كخطٍّ طويل قاتم من النخيل رسمت أبعادها على خلفيّةٍ من جرف صخري رمادي اللون، هو سلسلة تلال الضمان. وعلى الجانب الآخر من الأخدود التقى مجرى شعيب صفية

(١) بعد كتابة ما تقدّم، تم استرجاع الأمتعة التي خلفتها في الرياض، وتمّ فحص كل مجموعة المتحجرات بواسطة السيد. بولر نيوتن، ونورد في ملاحق هذا الكتاب مقتطفات من تقاريره حولها لمصلحة من يهمهم هذا الموضوع. (المؤلف).

(٢) المقصود بالحيش هي النخيل الصغيرة أو حديثة الركز. (المراجعون).

العـريض بالكرز، ومن وراء ذلك كان يـجري مـجرى تصـريف الصمـان، وهو مستجمع ثلاثة مجارٍ تقود إلى سهل رملي فسيح تمتدّ فيه الواحة أمامنا.

مررنا بين سياجين من حوائط طينية يحمـيان شتلات نخيل زرعت حديثاً، ثم مررنا عبر بساتين نخيل جيدة تحتوي على مباني وبها بعض آثار مزروعات أخرى. ولكن المستوطنة كلها كانت تبدو مهـجورة من السكان وهو ما عرفناه بالفعل عندما بلغنا مسكن الأمـير هذال بن عقـيان الشبـيه بالقلعة والواقع على الجـانب الأيسر لمجرى السيول. فأنخنا رواحلنا بقرب المسكن لنخيّم في ذلك النهار.

باستثناء قليل من المـارة الذين لم يبدوا اهتماماً بنا، والذين كـانوا يرفضون ردَّ سلامنا أو يردوه بخـشونة واسـتياء، وباسـتثناء فالح بن جـهيم ممثل الأمـير الذي خُصص لتلبية احـتياجاتنا، لم يكن في المستوطنة أحـد إذ فرّ السكان قبل قدومنا. بالرغم من أن إبراهيم أوصى جـابراً وعبيـداً بألاّ يشيعـا خبر مـرورنا في الأنحاء عندما صرفـهما عن رفقـتنا، إلا أنهما قد فـعلا ليسببـا لإبراهيم المصاعب، وهي بالطبع لحقت بنا جـميعاً. يبـدو أنّ الرجلين كانا قد شعـرا بالغبن عندما صرفـهما إبراهيم فجـأة ليعودا للرياض من الوادي فـأشاعا في القرى التي مـرّا بها حكايات عن وفود كافر للمنطقة واستقبلت القرى هذه الأنباء كلّ على طريقتها الخاصة بها. لم يُرِد أهل الهدار أن ينغصوا عيشهم بسببنا ولم يظهروا علامات اعتراض واضحة لقدومنا، ولكن هنا اختـلفت ردّة الفعل، وقام هذال أمير المسـتوطنة بإخلاء المدينة لئلا يتحدّى وفودنا إليه ونحن نحمل راية ابن سعود، وفي الوقت نفسه لئلا يضطر لاستضافـتنا، فاختاروا أن يبتعـدوا عن ديارهم لينزلوا في واحة واسط أثناء الصوم رغم ما فـيه من مشقـة. وتقع واحة واسط في وهد باطن الأحمـر على بعد اثني

عشر ميلاً أو نحوها أسفل الأحمر نفسها بالقرب من حدود سهل الأفلاج، وكان القرار ألاّ يعودوا لديارهم قبل أن تنتهي زيارتنا.

تجلّى اعتراض المقيمين على زيارتنا في رفضهم لأن يبيعونا شيئاً من احتياجاتنا، ولكننا تجاوزنا هذه المعضلة بأن جعلنا كل مشترياتنا من خلال فالح الذي كان قد قرر فيما يبدو أن ينظر للجانب الحسن من هذه المهمة المقيتة بأن صار مستجيباً لكلِّ رغباتنا وخير عونٍ لنا، وبذا استحقّ مكافأة مناسبة.

بينما كانوا ينصبون الخيام لحقت أنا بابن جلهم ومجموعة صغيرة أخرى في ظلٍّ ظليل من مزرعة النخيل الجميلة الخاصة بالأمير الغائب. وهناك في ظل أشجار الفاكهة شربنا القهوة وخلدنا للراحة. وكان موضوع حديثنا عن الجنّة وهو المكان الذي يحتفظ السلفيون له بتصوّرٍ واضح المعالم وبصورة قاطعة. كانوا يعتقدون أن أحجامهم ستزيد كثيراً وأنهم سيدخلون الجنّة ليتمتعوا بالمباهج التي تحرّم عليهم في الحياة الدنيا أو تلك التي لا يجدون السبيل إليها. ولقد عجبت لابن جلهم رغماً عن سنوات عمره الستين كان ينظر للمستقبل بكامل الرضا، ينظر نحو أجله الذي يدنو سريعاً على أنّه يقرّبُه من الجنّة والنعيم وأنه سيتمكن فيها من تجديد مباهج حياته الدنيا التي صارت الآن مجرد ذكريات لأيامٍ خلت.

يقال إنّ أول من أقاموا في الأحمر كانوا أفراداً من فرع فخذ داود من قبيلة قحطان، ولكن أجلاهم عن الواحة محاربان اثنان من قسم الشكرة[1]، أحد أقسام الدواسر. والمحاربان هما ظافر وإدريس، خالا عقيان. وهو والد زيد الذي هو

(١) راجع المتن ص ١٥٤ . (المؤلف).

والد هذال الأمير الحالي. يمتلك الشكرة الواحة تماماً كما هو الحال مع واسط، ويبلغ تعداد الشكرة حوالي ٦٠٠ نسمة وفقاً لإفادة الكثيرين، ولا يشمل هذا العدد العناصر البدوية التي قد يبلغ تعدادها رقماً مشابهاً دون أن يكون لهم حقّ أو نصيب في بساتين النخيل في الهجرتين. وهم تحت إدارة مستقلة بزعامة عقاب بن حفيّظ، وهو زعيم له وزنه وهو يبدو في المجالس القبلية متقدّماً على هذال نفسه ممارساً عليه بعض السلطة وكذا على أهل القرية من الحضر.

تستكنّ داخل بساتين النخيل قرية واحدة وسط عدد من القصور المتفرقة، وتمتد القرية بطول الشعيب لميل ونصف ويبلغ عرضها ربع الميل. وتنتهي القرية فجأة في وهد باطن الأحمر. وفي هذا الوهد وعلى بعد نصف ميل آخر تقع خرائب قرية المويصل المزدوجة المهجورة، وتحيط بها رقاع من الأثل وبعض حقول الحبوب. كان أهل الأحمر يسكنون في هذا الموقع لكنهم تخلّوا عنه منذ عهد قريب رغم أنهم ما زالوا يزرعون أراضي الحبوب المحيطة بها. وتبدو بساتين النخيل بالقرية غنية ومعطاءة، وبها أشجار فاكهة غنية وخضراوات تنمو تحت أشجار النخيل. فهناك الجريب فروت الذي نراه للمرة الأولى منذ أن غادرنا سهل الأفلاج، فهناك الخوخ والليمون. كما توجد نباتات القطن من فصيلة معترشة تتسلق جذوع النخيل. وهناك أيضاً الباذنجان والفلفل. بيد أنني لم أرَ أثراً للعنب، ولعله يجدر بي أن أذكر أن أشجار الجريب فروت لم تكن تحمل ثماراً إذ أنهم في هذه الأنحاء يجمع الثمار قبل أن تنضج ليستخرجوا من قشرتها صبغاً ذا لون بني مائل إلى الصفرة يستخدم لصبغ الملابس النسائية، ولا تترك ثمرة واحدة لتنضج وتؤكل. هذه الواحة دون شك أكثر غنىً وأقلّ مساحة من الهدّار التي يبدو أنها فقدت جزءاً من أهميتها

وثرائها كنتيجة لارتفاع شأن الأحمر في السنوات الماضية التي ما زالت في ذاكرة الأحياء. آبار الماء هنا ذات أعماق في المدى بين سبع إلى ثلاث عشرة قامة، واختلافها ناتج عن اختلاف الموقع أو الموسم، أمّا الحيوانات المحلية فهي مكوّنة من عدد محدود من الإبل وعدد كبير من الأغنام، ولكن لا توجد خراف فيما يبدو. وتربّى الأغنام من أجل أصوافها التي يستخدمونها لصناعة الخيام والملابس خلافاً لما يفعلونه في الشمال إذ يربّون لهذه الغاية الخراف فقط.

يقود أحد الطرق من طرف الواحة الأدنى - عبر ممر ضيق - إلى قمة سلسلة والجانب الأيمن لوادي عشيرة، حتى يبلغ مستوطنة الستارة. هذه هي المرحلة التالية في رحلة عودتنا. بيد أنّ هذا الطريق لم يكن عملياً بسبب ما فعلته فيه الأمطار الأخيرة، لذا سعدت بأن اتخذنا طريقاً بديلاً يلتف حول المكان عن طريق منبع وادي عشيرة. وفي صباح اليوم التالي كان طريقنا يمرّ بطول مجاري التصريف[1] التي تغسل سفح جرف الصمان الصخري، ثمّ تابعنا طريق القويعية، وهو أيضاً طريق رئيس لحجاج إقليم الأفلاج حتى الموقع الذي ينحدر فيه فوق الجرف الصخري الغربي ليسير بعدها في مهد شعيب الجويفة الصخري.

كان مرأى هذا الأخدود يستحق عناء التفافنا حول الطريق القديم. إذ كان صدعاً عظيماً في الحائط الصخري تحدُّه من الجانبين صخور جلمودية عظيمة يقف بعضها على حرف فوق الأطراف الصخرية أو على ركام متقلقل على المنحدرات. لذا كانت الصخور تبدو وكأنّها ستهوي إلى أدنى الأخدود لمسافة ٣٠٠ إلى ٤٠٠ قدم، وكان الطريق النازل يجري عبر مهد جاف لمجرى مائي ينزل سريعاً من

(١) المعيذر وندار والصمان وسدير وأبو صافي. (المؤلف).

سلسلة صخور إلى أخرى حتى يبلغ سهلاً معشباً يتَّسعُ بعدها شيئاً فشيئاً، وينتصب في بدايته جبل الجويفة ومرتفعات أخرى بلا اسم. أخبروني أن قوّة صغيرة من العرب تصدّت في هذا الموقع لحملة تركية أرسلت لتكبح الروح الاستقلالية لأهل الأفلاج، وأن القوّة أوقفت تقدّمها ودحرتها وأثقلت فيها الخسائر. ويقولون إن هذا حدث في الأيام الخالية أثناء احتلال الأتراك لنجد، بعد عقد أو عقدين من احتلال الأتراك للدرعية.

حتى هذا الوقت كنت أظنُّ أنّ انسياب تصريف السهل الواقع بعد جرف طويق كان في اتجاه الجنوب نحو وادي الدواسر، ولكنني وجدت الآن بالتحرّي أنّ الانحدار يتّجه نحو الشمال، وأنّ الماء الذي ينحدر من الهضبة يجري في ذلك الاتجاه في مجرى ضحل عريض ويلتحم في نهاية الأمر مع وادي السرة في الموقع الذي يتغيّر فيه اسمه ليصير وادي برك، ثمّ يجري شرقاً عبر الحاجز. ويبدو أنّ الفاصل بين مجاري التصريف المتجهة شمالاً وتلك المتّجهة جنوباً يقع في جوار جبل خشم عجبان، حيث تبعد حوالي عشرة أميال عن حافة النفود.

تناولنا إفطارنا وعاودنا المسير في شعيب أبي الصافي حتى بلغنا منبعه في ممر عشيرة الذي وجدت في قمته كما أشرت سابقاً متحجرات كثيرة. هذا الممر يقاطع خط جرف الصمان الصخري الذي سمت صخوره لارتفاع ٣٠٠ قدم فوق قمم المرتفعات الواقعة على الجانبين. ويقود ممر عشيرة إلى وادي عشيرة الذي يتجه شرقاً بين جانبين يبعدان نصف ميل عن بعضهما، ويبلغ ارتفاعهما ما بين ١٠٠ إلى ٣٠٠ قدم فوق سطح الحوض. وتقع قرية الحراضة - كما أخبروني - في وهد فرعي، وهي قرية صغيرة بين النخيل، على بعد مسيرة يوم أو أقل في اتجاه

الشمـال من هذه النقطة. ويسكن القرية ما لا يزيد علـى خمسين نسمـة من قسم القبابنة التابع للسهول[1].

تتبعنا الآن مجرى السيول الرملي المتعرّج، وتوقفنا للقيلولة بعد ثلاثة أميال من السيـر فيه حـيث توفرت الأعشـاب وأشجار السنط. كـان مكاننا ذلك في انحناءة حجبت عنا مرأى بدايات قرية مهجورة ومزارع مـتروكة ومبانٍ وآبارمهدمة، وكانت بعض الآبار تحتـوي على الماء وصارت الآن مـركزاً لمخيّم بدوي صـغيـر من رعاة قحطان يلتمسون فيهـا بعض الراحة من عناء الصوم في وهج الهجير، كانت تلك هي قـرية الجداوية. لم نكن نعلم أنّ هـذه القرية مـأهولة حتى رأينا خـيام البـدو السوداء، لعلهـا كانت خمس عشـرة خيمة تحجـبها أجمـة من السنط الشائك في حمى صخرة في الوادي. ولكن سرعان ما عرفنا أن وجودنا في منطقتهم كان أمراً معلوماً لديهم. كان جـابر قد أشاع خبر وصول كافـر، وكان بلوغنا للموقع الذي أنخنا فيه للقيلولة منذ علمه المراقبون على جانبي التلال.

كانت جمال الحملة قد أطلقت أمامنا بعـد العصر، وكانت قد تجاوزت المخيم المذكور. وعندمـا ركبنا أنا وإبراهيم وفالح للحـاق بالقافلة لاحظنا حركة غـريبة وسط الخيام، رجـال يسرعون في هذا الاتجاه وذاك دون هدف واضح، لـذا ابتعدنا قدر ما نستطيع عن الخيام سائرين بطول الجانب الأبعد للوادي، ولكنّ تحوطاتنا لم تُجدِ، ويعود الفـضل في هذا لأصدقائنا الذين أشاعوا خـبرنا. وقبل أن يمرّ وقت طويل سمعنا مـترك يرفع صوته بغضب، وكانت هناك ردود مـستنكرة من البدو، وعندما استدرت بجسمي لأستطلع جليـة الأمر رأيت المولى عبد الرزاق يعدو راكباً

(١) مفردها سهلي.

نحو الخيام مشرعاً بندقيته وشاهراً سيفه، ولم أدرِ ماذا كان يريد الرجل تحقيقه بهذه المغامرة. كانت تدفعه الشجاعة أكثر مما يدفعه العقل، قفز عن سرجه وأطبق عليه البدو الغاضبون ورموا به ومرّغوه في التراب، حينها فارق العقل جماعتنا وبعزمٍ واحد تحرّك أفراد الجماعة كلهم لإنقاذ رفيقنا وتركوني وسط بعير الحملة في صحبة أمَةٍ، كانت ابنة أخت أحد تابعينا وجدها في اليوم السابق في الأحمر وهي الآن ترافق خالها في طريق العودة للرياض إذ أنها فقدت أبويها منذ عهد قريب. التفتُّ إليها لأطمئنها لكنّها أشارت نحو الخيام حيث كانت الأحداث تجري مع كل الاحتمالات المأساوية التي لم أكن على أي حال أقدر على تغييرها.

خرج سكان القرية عن بكرة أبيهم، رجالهم ونساؤهم وأطفالهم في غضب، واشتدّت معركة كلامية اختلطت فيها أصوات النساء مع هدير الرجال وصخبهم، بينما كانت النساء في وسط هذه المعمعة حيث السيوف مشرعة والبنادق مُعَبَّأة. كان يبدو أنه لا بد أنّ طلقة ستخرج من بندقية ما ليتحوّل المشهد إلى مأساة، ورغم أن رفاقي كانوا يتفوقون في السلاح. إلاّ أن البدو كانوا يفوقونهم عدداً.

مثل هذه الأحداث لا تدوم طويلاً -هكذا تقول خبرتي في هذه البلاد- مهما كانت عنيفة أثناء وقوعها. فجأة هدأ النقاش وابتعد كلّ فريق عن الآخر وقد اكتفى كلّ منهم بنصر معنوي. قاد إبراهيم رفاقه في زهو المنتصر نحو القافلة، وعندها فقط وجدت الفرصة سانحة لأسأل عن أسباب اندلاع هذه الصورة عديمة المعنى، وعن الحماقة التي قادتنا قريباً من المأساة. قال متركٌ مبرراً تصرّفه: «والله كان هؤلاء القوم يعلمون قدومنا عن طريق جابر، وهم قد رأونا نخيّم للمقيل في الشعيب، وعندما مرَّت الحملة بجوار خيامهم لعنوا أفرادها لوجود كافر بينهم،

ولهذا السبب صرخت فيهم ليأخذوا حذرهم إذ أنهم يُسيئون لأتباع ابن سعود. وكان جوابهم: «لعنة الله عليكم لوجود الكفرة بينكم». وهكذا حمل عليهم عبد الرزاق، ولقد رأيت أنت ما حدث بعدها. وكان احتجاجي أنه لم يكن على الرفاق أن يستجيبوا لتلك الاستفزازات والأفعال الصبيانية. وكانت إجابة الرفاق: «والله أمثال هؤلاء يجدون الشجاعة فقط إن تركوهم سائرين في الغيِّ، لقد كانوا دون شك ينتظرون مرورنا ليطلقوا علينا النار من الخلف لولا أن هاجمناهم كما فعلنا. وهم الآن خائفون من أنَّنا سنخبر عنهم وأنهم سيتلقون العقاب من ابن عفيصان».

كان رفاقي على أيّ حال خجلين بعض الشيء لما حدث، وأخبرتهم بأنني لم أكن مقتنعاً بحجتهم، ثم تركنا الحديث عن الموضوع عند هذا الحد. ولكنهم كانوا يعودون للحديث عنه بغضب من وقت لآخر لبقية ذلك اليوم. أمّا أنا فلا بدّ أن أعترف أنني قد حددت رأياً قاطعاً حول صِحَّة أو خطأ تصرفهم في ظلِّ الظروف التي سادت، رغم أنني أرى أنّه لم يكن من المحتمل أن يتبعنا البدو ونحن على هذه الدرجة من التسلُّح إن تغافلنا عن إساءاتهم ومضينا في طريقنا.

ضاق الوادي الآن حتى صار عرضه ربع ميل، وصارَ جانباه أكثر انخفاضاً، وكانت تخطّ الهضبة على جانبي الوادي أحواض ضحلة لوهاد فرعية[1]. كنا نرى على جانبي طريقنا مزارع مهجورة ومبانٍ وآبار مهدّمة هنا وهناك، حتى مرّ الطريق بجوار مزارع المُليجي وهو شريط ضيق من النخيل، يبلغ عددها ٣٠٠ نخلة،

(١) هي شعيب منهاج، ملوي والداهنة وحنوة والقبورية، بهذا التتابع ونحن نتقدّم نحو أسفل الوادي. (المؤلف).

ويمتدّ لحوالي ميل في اتجاه أدنى الوادي، مع وفرة في أجمات الطرفة وكذلك التين البري[1] ذي الأوراق العريضة، خاصة حيث يلتقي أخدود حنوة مع الشعيب الرئيس.

بعد حوالي ميل من هذا الموقع دخلنا واحة الستارة لنخيّم للمبيت تحت أسوار قرية صغيرة تشبه القلعة وتضمّ في داخلها معظم سكانها. كنّا قد سرنا مسافة طويلة جداً، لعلها كانت ثلاثين ميلاً، ساعدنا على السير فيها طقس معتدل ونسمات شمالية لطيفة. وكنا سعداء إذ لم نجد معارضة من الأهالي تضطرّنا لإعادة المشهد العدائي الذي واجهنا في فترة بعد الظهيرة.

كان مهد المجرى السلي هنا رملياً عريضاً، ويجري في المنطقة على شكل نصف دائرة عريضة، تحفّ به بساتين النخيل الكثيفة على الجانبين. تقع القرية على الجانب الأيسر مواجهةً لأكثر البساتين كثافةً، وفي هذا الموقع ينحدر طريق حمرة المباشر نازلاً من الهضبة نحو الوادي. كان المشهد الريفي ساراً عندما ننظر إليه من أعلى الوادي، حيث كانت تبدو انحناءة الواحة الجميلة، بالإضافة للقرية نفسها وهي قلعة صغيرة مستطيلة الشكل لا يتعدى طولها ١٠٠ ياردة وعرضها ٦٠ ياردة وبها ثمانية أبراج، وثلاثة أبواب، ويزيد جمال منظرها البساتين الظليلة على جانبيها. وكان هناك قصر وحيد خارج أسوار القرية في أحد البساتين. ولم يكن تعداد السكان بالقرية كلها يزيد على خمسين نسمة، رغم أنّه في وقت زيارتنا كانت تتناثر خيام البدو في الواحة بمناسبة شهر الصوم فيما يبدو. ولعلّ السكان الدائمين هم عائلة الأمير المحلي عبدالله بن ذيب وأتباعه، وهو رجل ذائع الصيت بين القبابنة، ويعتمد عليه وعلى إنتاج الواحة مئتا شخص.

---

(١) يسمونه حماط. (المؤلف).

تمتد القرية لمسافة ميل ونصف بطول مجرى السيول ويحدّ المجرى المنحني جرف صخري منخفض يتابع انحناءه بينما يتكون الجانب المقابل للوادي من سلسلة من الروابي في شكل مرتفعات متموجة. لم يكن في البساتين الكثير من الزرع تحت النخيل، ولكنّي لاحظت بعض شجيرات الجريب فروت والتين والعنب، وهذه الأخيرة كانت تنتشر حول فتحات الآبار.

كنا الآن نقترب بسرعة من نهاية وادي عشيرة، وبسيرنا لمسافة اثني عشر ميلاً في اليوم التالي بلغنا الغيل، وهي مستوطنة جدّ غنية، تقع في أدنى الوادي بالقرب من موقع التقائه بسهل الأفلاج، كان كل ما تبقّى من الهجرة السابقة جنينة لا يعدو ثلاث أو أربع نخلات قصيرة ومثلها من الآبار المهجورة المحطمة. ومررنا بعد هذه القرية المهجورة بشعيب سمران الذي يُقال إنّ منبعه بجوار خشم حصان. وتكوّن الأراضي المرتفعة أدنى هذا الموقع على الجانب الأيسر لساناً ضيقاً من الصخور يقسمُ الوادي لسهلين دائريْين فسيحين تُغطّيهما تربة طفلية تكونت عبر السنين، ويربط بين جزئي السهل ممر ضيّق يمرّ من خلاله مجرى السيول. تعرف الصخرة التي تظلل المكان تحت السلسلة الصخرية الناتئة باسم أبو ديدي، ويُقال إنّها كانت تُعد من عصر الجاهلية. كانت هذه الصخرة هي الأثر الوحيد الذي مررت به من آثار العهود الجاهلية، ولا تبدو لي الصخرة ذات أهمية تؤهلها لاهتمام زوار المنطقة إلاّ لأنها تُظَلِّلُ المكان تحتها لمن يبحث عن ملاذ يقيه أشعة الشمس.

بعد هذه الصخرة مباشرة مررنا ببدايات قرية الغيل: قصور مهدمة ومزارع تحيط بها وتطوف بالوادي لمسافة ثلاثة أميال ابتداءً من هذا الموقع حتى بساتين القرية الحقيقية. كان ذلك الخراب وعدم وجود من يفلح الأرض دلالة كافية للتدهور

الذي أصاب القرية التي كانت يوماً ما مشهورة بثرائها وامتدادها. ويبدو لي أنه قد مضت سنوات طويلة منذ أن أنتجت هذه الحقول أيّاً من المحاصيل رغم أنّ فالحاً أخبرني أنّ بعض مساحات من هذه البقاع يزرعها أهل الغيل من حين لآخر عندما تكون الأمطار كافية فتسمح بالزراعة السيول التي تلي موسم الأمطار. كان مجرى السيول يجري فوق مهد عميق لا يقل عمقه عن عشرة أقدام بالمقارنة مع الأرض على الجانبين. كما كان عرض المجرى يبلغ حوالي عشرين ياردة ولذا فإنه يبدو لي أنّ السيول الاستثنائية فقط هي التي يمكن أن تغمر هذه الحقول. ثمّ إن السبب في تدهور هذه الأنحاء هو الارتفاع المستمر لمستوى الوادي الناتج عن ترسب الطمي عبر السيول المتتالية.

كان بعض الخيام السوداء لبدو المطارا تتخلل المشهد المهجور أمامنا. وبتتبعنا لانحنائه في الوادي صارت واحة الغيل على مرأى منّا؛ غابة كثيفة من النخيل تسدُّ المكان بين الصخور الجيرية المترسبة على جانبي الوهد. ضاع مجرى السيول في ذلك الخضم، بينما تتبع الطريق سلسلة صخور في سفح الجرف الصخري الذي يكوّن الجانب الأيسر للمنخفض. كان أوّل ما بلغناه من الرقاع المزروعة بستان نخيل تنوء نخيله بمحصول ثقيل من تمر لـمَّا ينضج بعد، وكان وسط البستان مبنى مهدّماً. ومن وراء ذلك في الجانب الآخر من أرض خلاء رأينا قلعة مهدمة بها برج عالٍ منعزل يكوّن خط دفاع للقرية. توجد بعد ذلك بساتين نخيل على أرض يبلغُ عرضها ٣٠٠ ياردة، تتخللها بعض الجروف الصخرية التي ترتفع لمئة قدم. عبرنا فوق جسر مبني يمرّ من تحته أخدود ضيّق، وقادنا الطريق عبر قلب الواحة بطول مجرى السيول الرئيس حتى بلغنا قرية البديعة التي خيمنا بإزائها في فناء صغير تحت الجرف الصخري الشاهق على الجانب الأيمن للمجرى.

تمكنت من مشاهدة جيدة للمنطقة وما حولها من فوق قمة ذلك الجرف الصخري. كانت كتلة النخيل المتشابكة تبدو من تحتي وتمتدّ في خط متّصل في اتجاه أسفل الوادي لمسافة تقارب الميلين بعرض يبلغ نحو ٣٠٠ ياردة، ويمتدُّ الخط من برج المراقبة الواقع في أعلى الوادي إلى الطرف الأدنى للواحة حيث ينحني الوادي بحدَّة نحو الجنوب. كانت الهضبة المهجورة على المستوى الأعلى تمتدُّ في جميع الاتجاهات مع انحناء حاد نحو الشرق باتجاه سهل الأفلاج الذي تلتقي به على بعد مسافة غير بعيدة من هذا الموقع. كان يحدّ الوادي بعد مسافة بعيدة السلسلة الخارجية لصحراء البياض الذي كان ظاهراً للعيان رغم أنّه لم يكن في الإمكان تبيّن تفاصيله بسبب الغبار العالق الذي كان يخيّم على المكان. بيد أنّ الإقليم الوعر بجوار شعيبي العرس والمراء كان بادياً للعيان في ناحية الشرق بسلاسل تلاله السوداء والبيضاء. ولكن لم تكن واحة الأفلاج لتُرى إلاّ كنقاط داكنة من الزرع ولم يكن تبيّنها سهلاً.

يعود سبب تسمية واحة الغيل بهذا الاسم لوجود غدير دائم في مهد مجرى السيل بذات الاسم، يحملُ الماء طوال الوقت - رغم أنّ ماءه ليس وفيراً - بطول المزارع حتى تنتهي مياهه بعد أن يسقي مزارع ثلاث قرى: قرية العمائر في أعلى الوادي وبها حوالي ١٥٠ نسمة، والبديعة وهي مجموعة من ثلاث قرى صغيرة على الجانب الأيسر للوادي، وهي أكثف مواقع القرية زراعة ويسكنها ٣٠٠ نسمة بما في ذلك الأمير المحلي الذي يسكن في القرية الوسطى وهي أكبرها. والقرية الثالثة الأخيرة هي مشرفة، وهي مقسمة إلى جزأين صغيرين، وتقع على بعد ميل من البديعة في اتجاه أدنى الوادي، لكنها أقرب للجانب الأيمن للوادي وقوامها ١٠٠ نسمة. إضافة لهذه القرى هناك المباني الريفية «القصور» المتفرقة وعددها

حوالي اثني عشر قصراً، وأحد هذه القصور يحتلّ موقعاً جيداً في منتصف الطريق على الجرف الصخري في الجانب الأيسر للوادي، مُطلاً على البديعة.

لا بدَّ أن جملة سكان المستوطنة يبلغ حوالي ٧٠٠ نسمة، أكثرهم من بني خضير الذين يملكون ويزرعون بساتين الواحة باستئجارها من ملاكها القبابنة الذين يفضلون الحياة البدوية ليعودوا إلى الغيل فقط أثناء شهر رمضان وفي موسم حصاد التمر. زعيم كل فروع القسم الأعلى هو ناصر بن شخيْط الذي ترك - تحت إشرافه- إدارة مصالح القرية لعناية حمد بن ثلاب. لم يكن أيّ من الرجلين؛ ناصر أو حمد بالمستوطنة عند زيارتنا لها، ولكن عودة الأخير كانت متوقعة في أيّ لحظة إذ كان قد أعلن أنه سيعود ليصوم الشهر في القرية. كان الرجل قد علم باحتمال قدومنا، لذا اتخذ الاحتياطات اللازمة محذراً رعاياه بضرورة القيام بواجبات الضيافة نحونا.

لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان ذلك الكرم ناتجاً عن ذلك التحذير أم أنّه متأصّل في أهل الغيل، ولكنني أسجل بالعرفان أنهم قابلونا فور وصولنا باستقبال ودّي، إذ خرجت نساء البديعة لتحيتنا عندما مررنا بالقرية وهم يدعون خيراً لابن سعود، بينما كان الأطفال يعبرون عن فرحهم في شوارع القرية. وعندما بلغنا المخيّم لُبِّيت احتياجاتنا من العلف بسرعة كبيرة. تمر الغيل -وهو في أغلبه من عينة سري- تمرٌ ممتاز، وأحضروا لي سَلّة عنب وهو أول ما تذوقته من العنب في الجزيرة العربية، لكنّه لم يكن آخرها كما لم يكن أفضلها، إذ أنّها كانت بواكير الإنتاج وكان لها طعم حامض، ولا مزيّة لها سوى أنها فاكهة طازجة. يبلغ عمق الماء في آبار الغيل حوالي ست قامات، في حين أنّ آبار الستارة لم تكن أعمق من أربع قامات، ولكن تميّز القرية وثراءها يعود إلى مياهها الجارية.

تابعنا سيرنا صباح اليوم التالي وعبرنا الغدير للمرة الثانية، وارتقينا مرتقى صعباً على جانب الجرف الصخري الشديد الانحدار، وتجاوزنا القصر الذي تحدثنا عنه سابقاً حتى بلغنا أعلى الهضبة، ومن هناك تمتعت بمشهد سهل الأفلاج وواحاته: الخَرْفة وليلى والأخريات، كانت هناك بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي. حوّلنا اتجاه سيرنا مرة ثانية نحو الشمال عابرين القفار الموحشة التي تكوّن الطرف الشرقي لهضبة طويق. كنا نرى هنا وهناك ملامح لمعالم كنا قد مررنا بها أثناء رحلتنا نحو الوادي، ولكن المشهد حولنا كان بلا معالم وبلا حدود، وكان اليوم أحد أثقل الأيام التي قضيتها في الجزيرة العربية.

كانت بعض الوهاد تقاطع الصقع المرتفع ذا السطح الرتيب المتشابه على فترات، وكان أول الوهاد التي تعترض طريقنا شعيب مليزي، وثانيها شعيب الحراضة وهي روافد لوادي عشيرة مليزي، ويلتقيان به قبل أن يصل الوادي إلى السهل. بعد ذلك قطعنا شعيبين صغيرين آخرين[1] وهما من روافد المجرى العميق المسمّى أم الجرف وهو بدوره مصدر المجريين التوأمين العرس والمراء في سهل الرجد، واللذين بلغناهما بعد ثلاث ساعات من السير. كان الهبوط لهذا المنخفض الطيني العريض أمراً شاقاً، بيد أنّه لم يكن شديد الانحدار. أمّا الجانب الآخر فلقد كان من الصخور المترسبة وبه ممر ضيق صعب الارتقاء. كنا في طريقنا إلى ذلك الممر عندما دوّى صوت رصاصة لابدّ أنها أطلقت في اتجاهنا. كان صدى الدَّويِّ يتردد تكراراً نتيجة لوجود كل تلك الصخور من حولنا. لم يكن

(١) شعيب سومرين وشعيب آخر بلا اسم. (المؤلف).

هناك تفسير لما حدث للحظات، ولم يكن هناك أثر لإنسان بخلاف جماعتنا على مدّ البصر، بيد أنّ الحذر كان واجباً حتى لا نجد أنفسنا في فخّ، وما أن تجمعنا للتشاور حول الأمر حتى أتانا طامي من الخلف بالخبر اليقين، إذ أنه رأى رجلاً منفرداً على البعد وأنه صاح له أن اقترب، عندها أطلق الرجل العيار الناري على سبيل التحذير وأطلق ساقيه للريح.

هذه هي المحاذير الدائمة للسفر في الصحراء قطعنا وهدًا إثر آخر[1]، نضرب في الأرض وقد أنهكتنا القفار، وأبدت إبلنا- رغماً عن قصرالمسافة التي عبرناها ورغماً عن طول فترة الراحة التي قضيناها بالأمس- أبدت علامات الإنهاك والنصب. بدت عن يميننا بوضوح سلسلة التلال المنخفضة ذات الصخور الداكنة بطول شعيب الغينة، كما بدت أيضاً رابية مخروطية الشكل بجوار شعيب العرس. لكن لم يكن هناك ما يدعونا لمواصلة السير، وكنا مسرورين بالتوقف للمبيت في منخفض بهضبة لا اسم لها. ما أملى علينا قرار التوقف هو معلومات كانت أتت إلينا بأنّ آبار الورهية التي كنا نقصدها تحتلها مجموعات من البدو: دواسر وقحاطين وقبابنة وآخرون، وكان الرأي أنه ليس من الحكمة الدخول في مخاطرة بقضاء الليل بين ظهرانيهم.

تحركنا في الصباح الباكر لندخل المنخفض العريض لشعيب الدريعي، ثم سرنا فيه لبعض الوقت، وهو الذي قطعنا من قبل امتداده الأدنى[2] في رحلتنا نحو الجنوب، ثم خرجنا من هذا المنخفض لنرتقي الهضبة ورأينا منظراً ممتداً لا حياة فيه كالذي سرنا فيه خلال اليوم السابق. بدا الآن صقع نسلة على اليمين ولم يكن

(١) شعيب حنشلية وسديرات، ورافد بلا اسم يغذي سديرات وأم الحشا. (المؤلف).

(٢) يعرف باسم شعيب ديّة، راجع المتن ص ٩٩ . (المؤلف).

بعيداً، وتغيّر سطح الهضبة المسطّح فصار متموجاً على جانبي شعيب رملي عريض آخر، وكان هذا الشعيب ويسمّى غُلغُل يمثل رافداً للدريعي. وصلنا لهذا المنخفض عن طريق منحدر طويل سهل التدرّج ووجدناه مأهولاً بالقطعان وحيوانات كثير من البدو الذين تجمعوا حول آبار الورهية الاثنتين. وثبت لنا أن هؤلاء من قحطان من فخذ شريف، وبما أنهم احتلوا المكان طوال الليل ونهلت مواشيهم من الماء وعلّت، فلقد أخلوا لنا السبيل عن طيب خاطر. ولكن ما إن استقررنا هناك حتى لاحت مجموعة كبيرة من القبابنة قادمة من مكان سقيا البعيجا الواقعة إلى الشمال من الغيل، وغطّت على الأفق فوق سلسلة التلال التي تكوّن الجانب الأيسر للوادي. ثمَّ تقدموا نحونا، إنّ منظر قافلة بدوية متحركة منظر خلاّب في كل الأحوال، ولم يكن أمر هؤلاء مختلفاً.

كانت القافلة مكوّنة من نحو ثلاثين رجلاً يقودون الركب فوق نياق مزيّنة مزركشة، وكان يتبعهم حوالي مئة من النساء والأطفال في هوادجهم أو على أحمال البعير، كما كان يحرسهم حوالي اثني عشر كلباً. كانت كل النساء يرتدين ملابس حمراء، وعلى رؤوسهن خُمُر سود، ولكن باستثناء هذا كان يبدو أنهنّ يستمتعن بحرية كاملة بالتحرك وسط الرجال، وكان عليهن بطبيعة الحال تحمّل نصيب الأسد من المسؤوليات بعد وصول القافلة إلى جوار الآبار، مثل نصب الخيام وفرز الأمتعة ومهام على هذه الشاكلة، بينما يتجمع الرجال في دوائر أنس يُعدُّون القهوة ويتسامرون حتى يحين وقت السقيا. كان رأس القافلة رجل يدعى حمداً وهو أحد أقرباء ابن ثلاب، أمير الغيل. أتى حمد هذا ليعرض علينا خدماته، تحدثنا لبعض الوقت وبعدها أصرّ أن يصحبني للبئر حيث وجدت كثيراً من رجاله يُقدِّمون يد العون لرفاقي وهم يسقون الإبل. سألني أحد رجاله مازحاً

إن كنت أودّ أن أكتب في البئر، إذ أنّ العرب مقتنعون بأن الأجانب الذين يزورون بلادهم يفعلون ذلك من أجل تسجيل عجائبهم، وهم في تفكيرهم هذا ليسوا بعيدين عن الحقيقة.

إحدى البئرين اللتين تشكلان مجموعة الورهية مدفونةٌ بالرمال تماماً حتى موقع البنيان الذي يحيط بفم البئر. بينما تغور البئر الثانية إلى عمق خمس قامات، وهي غير مبطنة ولكنّها محاطة بدائرة من الصخور حول أعلاها. إنّ الاستهلاك المتّصل لمياه هذه البئر يجعل منسوب الماء بها منخفضاً ولكن الماء كثير جداً في القاعدة الرملية للبئر ويرتفع فيها الماء كلما تُركت البئر لبعض الوقت، بينما يكفي خدش يسير في رمال القاع لزيادة الحصيلة مؤقتاً. طبيعة الماء في هذه البئر ممتازة وكذلك في بئر أخرى تُسمّى قَلْها، تقع على بعد ثلاثة أميال في اتجاه أدنى الوادي بالقرب من موقع التقائه بالدريعي.

واصلنا سيرنا بعد أن أخذنا قسطاً طيباً من الراحة، وخرجنا من الشعيب إلى المرتفعات المحيطة ودلفنا- خارجين من منطقة الأفلاج إلى منطقة الفرع، إذ أننا تتبعنا غلغل وأحد روافده ويُسمَّى نعض غلغل لمسافة ما حتى بلغنا المنطقة الفاصلة بين نعض غلغل ووادي نعض بعيجاء، وهذه هي آخر قنوات التصريف شمالاً في هذا الصقع والتي لا تسهم بتصريف سيولها السنوية لمجرى العقيمي العظيم، ولكن بوصفها روافد للدريعي فإنها تجد طريقها لشعيب الديّة ومن ثمّ تنصرف مياهها جنوباً نحو سهل الأفلاج ومن ورائه لصحراء البياض.

٤- إقليم الفرع:

إن أسماء الحوطة والحريق محفورة بعمق في تاريخ نجد ولكن الإقليم الذي تشكلان مدنه الرئيسة لم يحظ بتقصي الجغرافيين الأوربيين. ولقد كان من قام بإعداد وتجميع الكتاب الرسمي عن الجزيرة العربية حذراً في تجميع المعلومات الضئيلة والمتضاربة التي كانت متاحةً له حول الموضوع. لقد كان يتساءل «هل هذا إقليم واحد أم هما إقليمان؟ وهل يحملان الأسماء نفسها أم أنّ لهما أسماء أخرى وهل هذه الأسماء هي في الأصل للمدن الرئيسة في كل إقليم؟ كل هذه أسئلة تبحث عن إجابات» كان خطأ بلجريف فاحشاً في تحديد موقع الإقليم إذ وضعه على حافة الصحراء الجنوبية العظيمة كما رآه بعينيه[1]. ولكن واضع ذلك الكتاب رفض قبول شهادة بلجريف، شاهد العيان الوحيد وآثر الأخذ بوصف جاء عن طريق غير مباشر فوضع الصقع على الخريطة بدقة من حيث موقعه من الخرج والعارض، وبمعنى أدق غرب الخرج وجنوب الثانية، ولكنه في الوقت نفسه يخطئ بوضعه جنوب الأفلاج استناداً على رواية بلجريف مفضلاً إيّاها على رأي لوريمر الذي حدّد موقعاً صائباً للمواقع النسبية للإقليمين بعد استفسارات كثيرة من زوار عرب وفدوا إلى الخليج العربي.

اسم هذا الإقليم الفرع، وأهم ملامحه هو ممر المجمعة الضيّق العميق الذي يشكل أيضاً حدوده الشمالية. وعلى جانبي هذا الممر الذي يشق مرتفعات طويق تقع الواحة الكبرى التي تضم مستوطنات الحريق والحوطة. وإلى الشمال من هذا الخط يقع قسم طويق المعروف باسم العارض حيث تنتشر على جزئه الجنوبي

---

(١) كتاب بلجريف، الجزء الثاني، ص١٢٨. (المؤلف).

الغربي كتل عـليّة الشامخة التي تشـكل أعلى قسم في كل الهضبـة، وهي مصدر السيول التي صاغت الواحتين الكبيـرتين. يمتدُّ الإقليم على امتداد عرض طويق من الغرب للشـرق لمسافة تقدَّرُ بثلاثين مـيلاً، ثم يستمـرُّ لعشرين ميـلاً أخرى بمحاذاة مرتفعـات الأفلاج، بطول الخط الفاصل بين مجاري بعيـجاء والدريعي. ويبدو أنّه يغطي مـساحـة تبلغ ١٥٠٠ ميل مـربع من أكثـر المناطق الكالحة خـواءً في وسط الجزيرة العربية. وإن جاز لنا أن نقارن بين الجـزء والكل فإننا نرى هذه المنطقة مثالاً مصـغراً في النواحي الطبيـعية والإنسانـية لوسط الجزيرة العـربية، وهو مثال غـير مبـهج. هنا وجدنا سـلالة بني تميم القديمة، سـلالة فخـورة من صغـار الفلاحين راضون بانعـزالهم عن العالم المحيط بـهم ويبحثـون في المقابل فقط عـمّا يمكنهم الحصـول عليه بكدحـهم. وهم مصنفـون - مع سكان قرى العـارض- من أقوى المحـاربين شـكيمـة في الجـزيرة العربيـة، كمـا أنهـم من السـلفـيين الأتقيـاء التقـليديين ويفخـرون بولائهم لرأس الدولة السعـودية. ذلك الولاء الذي برهنوا عليه أيام احتلال الرشـيـديين بأن عاقبوا جابي الزكاة التـابع لإدارة المغتصبين علناً في سوق الحـوطة، بعد أن تهـدّر بظهوره بينهم مطالـباً إياهم بدفع الزكـاة لخزينة الدولة.

بالطبع لم أكن أدري موقع مستـوطنات الفرع تحديداً، وبدا لي أنّ الطريق كان يقودنا بعـيداً نحو الشـرق في اتجاه وادي العقـيمي، تاركين مرتفـعات طويق عن شمالنا. في ظل هذه الظروف تشجعت في مـساء ذلك اليوم وفتحت الموضوع مع إبراهيم، فبدت علـى وجهه نظرة غريبة عندمـا ذكّرته بوعده لتأكـيد ظني بأنه كان ينوي خـداعي عندما قـطع ذلك الوعد. قـال لي: «ألم يحـذرنا ابن سعـود عند

مغادرتنا آمـراً إيانا أن نتجنَّب الحوطة والحريق؟» أجـبت: «بلى، ولكن ألَمْ تعدني أنت بأخذي إلى تلك المناطق معلناً أنّ ابن سعود قصد ألاّ نتوقف في وسطها؟ ألم تعدني بأننا عندما نقترب من الحريق سنرسـل أمامنا الحملة ليلاً وننتظر الفجر، ثم نركب مسـرعين عبر الحـريق حتى أسفل الـشعيب مـروراً بالحوطة دون أن يلحظ الناس أن هناك ما يُريب؟» قال بإصرار: «والله إذا أردنا أن نفعل ذلك ما كان علينا اتباع هذا الطريق الذي سلكناه، ولـكن كان علينا أن نتّبع منحدر طويق الـصخري الشـاهق على الجانـب الآخر لنصـل إلى الممر الذي يقـودنا إلى الحريق، ولكنك في الوادي قلت إنك تريد رؤية الأحـمر والهـدّار وما كـان يمكننا المرور بالجهـتين معاً».

قلت: «يا إبراهيم لقـد خـدعـتني، ولقـد كنت طوال هذه الرحلة فظاً سـيئ المعاملة لي. لقد كان لدينـا كل الوقت للالتفاف لنصل إلى تلك المواقع ولكن كل الأمر بيدك وما يمكنني قوله هو الآتي: إن لم أرَ مدن الفرع كما وعدتني إياي فلن تكون لي معك عـلاقة قط منذ اللحظة التي نصل فيهـا إلى الرياض، وحتى ذلك الحين أنت المسؤول عن سيرنا، وليس لي ما أقوله بعد».

شعرت الآن أن إبراهيم وقد علم رأيي حول محاولة خداعه لي، سيحاول أن ينجز وعده ولو جزئياً؛ لأننا وقد ذهبنا بعيداً سيصعب علينا تحقيق المبتغى بكامله. كان هذا الاسـتنتاج منطقيـاً ولكن ليس عليَّ أن أستـبق الأحداث. انتهى مـجرى سيول نعض بعـيجاء في نهاية الأمر بجـوار صخرة بارزة مخروطـية الشكل تسمى رُبع، وذلك بعد أن اتخذ مجرى متعـرجاً ماراً خلال فجوة بين التلال. وفي جوار تلك الصخرة المخروطـية التقى وذاب في أحمرة، وهو حوض عظيم تقع مـقدمته

في المرتفعات البعيدة في غرب طويق، ويشكّلُ لساناً ممتداً في داخل هضبة شعيب البعيجا. وهذا الأخير كنا قد مررنا بالموقع الذي يلتقي فيه مع شعيب حلفاوي في نهاية وادي العقيمي، في رحلتنا نحو الجنوب قبل أكثر من شهر.

يجري وادي أحمرة -المحاط على الجانبين بجروف عالية عظيمة كدعامات تسند جدران الهضبة- في الاتجاه الشمالي الشرقي من النقطة التي دخلنا إليه بها وهو مغطى بشجيرات صحراوية وأشجار طلح كثيرة وأنواع أخرى من أشجار السنط والمرخ الذي يشبه المكنسة. ويسدُّ الوادي هنا وهناك كتلٌ كثيفة من الطمي المتراكم يصل ارتفاعها عشرة أقدام أو أكثر، ومن خلالها يجري مجرى السيل الذي يتكون مهده من رمال وحصباء تظهر في شكل منحنيات ناعمة حول أكتاف صخرة بارزة من الدعامات الجانبية. وبعد مسافة وأخرى تتقلص الصخور الشاهقة تدريجياً لتكوّن خلجاناً تتجمع فيها المياه من الأراضي العالية في الخلف لتجري في روافد صغيرة[1].

بعد مسافة خمسة أميال أسفل المجرى بلغنا بئر بعيجاء وقد نصبت حولها حوالي خمسين خيمة لبدو القبابنة الذين تجمعوا في المراعي المجاورة استعداداً للسير في اليوم التالي إلى الغيل. لم يتسبب ظهورنا حول منحنى الوادي في أي نوع من الإثارة وسط سكان الخيام الذين كانوا يعلمون جيداً بأننا لكي نصل إلى تلك النقطة لا بد أننا قد مررنا بوديان ومرتفعات تسكنها عشيرتهم. مررنا بإزاء البئر الوحيدة التي يبلغ عمق الماء فيها خمس عشرة قامة والتي تميّزت بماء وفير جيد

(١) سُميّرية: على بئر بعيجاء ومسيدر وأم الفرائد وعبيران وأم طليحة أسفله. (المؤلف).

تجمهر حوله حوالي مئة من الإبل وعـدد لا يحصى من الخراف لتستقى في المساء. أنخنا رواحلنا على بعد من أجل المبيت. كان حمد بن غـيل أمير الغيل نفسه هنا. ولم يكتف بإرسـال شاتين لعشـائنا فحـسب بل جاء بعـد الوجبة ليـتحـدث معنا ويرتشف القهوة حـول نار مخيمنا. شاركنا عـشاءنا ثلاثة من الشكرة الدواسر أتوا ليسمعوا أخبار بلادهم التي أتينا منها، والتي ظلّوا بعيداً عنها لعدّة شهور بحثاً عن المرعى. كنت أنا لسوء الطالع قد عدت إلى خيـمتي لأكتب أو أقرأ بعد أن غادرنا ضيوفنا هؤلاء؛ لذا لم أحظ بلقاء حـمد في زيارته تلك، وهو الذي تحدث الرفاق في اليوم التالي عن شخـصيته الودودة المرحبة. بيـد أنهم عزوا تودده إلى انتقادات ابن سعود الأخيرة له. إن حكم بلاد كالجزيـرة العربية ليس أمراً سهلاً. هو أمر لا مفرّ فيه من تبادل الضربات في البداية. ولـم يكن أحد غير ابن سعود ليستطيع أن يدير بلداً كهذا، وهو الذي يعرف كيف يداوي الجـراح التي يتسبب فيها. والدليل على نجاحـه تنبئ عنه قائمة طويلة من الأعـداء الذين تحولوا إلى أصدقاء أوفـياء، ليس بتقـديم الهدايا لهم، ولا بالترفق بهم، ولكن بالضـربات الموجـعة دون هوادة أو رحـمـة لكل من يقف في طريـقه مناوئـاً، ثم السمـاح والعـفـو الكامل بعـد العقاب.

تتبعنا في اليوم التـالي الوادي نحو الأسفل حتى النقطة التي يتّسع فيـها سريعاً بعد أن يتـباعـد جانبـاه ويصبحـا منخفـضين، وهو الذي يصبُّ بعدهـا في سهل العـقيـمي من خلال الزاوية التي تكوّنـت بالتقـاء تلال انصلح والمنحدر الخـارجي اللطيف لطويق. وبعد أن توقفنا قليـلاً للإفطار في شعيب رملي يدعى أم الرمال، تابعنا سيـرنا فوق كتف منخـفض للهضبة يبـرز داخل السهل، ومن قمـته لاحظنا

وادي العقيمي المرتفع الممتد أمام أعيننا، وهو الحوض الدائري المتسع الذي مررنا به سابقاً، ومعالمه البارزة خشم خرطم والأرض الرأسية نسوان يبدو أن هناك على البعد في أطرافه.

سرنا الآن بطول حافة منحدر طويق فوق أرض ثابتة بعرض الأطراف العليا لشعيب طلحا بالقرب من الموقع الذي يصب فيه في السهل، وتوجهنا نحو خليج متسع يجري نحو الهضبة وتحدّه على الجانبين تلالٌ منخفضة عارية. كان هذا الخليج الذي فصله عن السهل لسان رملي هو وادي برك الذي كوّن شكلاً إسفينياً، قمته في الموقع الذي يتوقف فيه الوادي عن الجري بين الصخور الترسيبية الشاهقة. وتمتد قاعدة الشكل الإسفيني لمسافة ميل في الموقع الذي يلتقي فيه الوادي بالسهل. لم يكن في هذا الحوض ما يثبت وجود مجاري سيول دائمة، ولكن من المحتمل أنَّ مياه السيل تنتشر بعرض الشكل الإسفيني نحو السهل حيث تلتقي بصورة طبيعية بمجاريه لتنحت مهدها مخلّفةً الرمال والصخور التي رأيتها في ذلك السهل.

تقدمنا إلى أعلى الوادي في اتّجاه القمّة لنقيم، مخيمنا تحت ظل أشجار السرح الضخمة التي تحيط بها سلسلة من البرك الجافّة تماماً وتسمى مزعب. فخرجت لأرتقي تلاً خفيضاً حتى أتمكن من رؤية منظر المنطقة المحيطة بنا بدرجة أفضل. كنت أتفحص المكان عندما رآني أحد البدو الذي كان يبحث عن جمل مفقود. سألت نفسي إن كنت دون أن أقصد قد أرشدت عصابة مغيرة على موقع مخيّمنا، وتراجعت سريعاً نحو المخيّم يتبعني ذلك الأعرابي حتى توسطنا الرفاق. وشعرت بالارتياح عندما علمت بأنه كان يبحث عن الجمل وأنه عندما رآني أتطلع

إلى المكان ظنّ أنني وجدت الجمل المفقود وأنني كنت أبحث عن صاحبه. وبعد أن تناول مشروباً تركنا الرجل ليواصل بحثه.

لا يفصلنا الآن عن قمة الإسفين سوى ميل أو نحوه حيث وسمت بركة جافّة تسمى ثقب حَيْد الطرف الشرقي للقناة الطويلة التي تحفّها الصخور الشاهقة ويَشقُّها وادي برك العظيم الجاف عبر حاجز طويق الضخم من الغرب للشرق. يجري الوادي الذي تعرف أجزاؤه العليا باسم وادي السرّة مرتفعاً في أراضي عالية نجد التي عبرتها بالقرب من مصدر ذلك الوادي أثناء رحلتي إلى جدة قبل شهور. ويجري الوادي في مساره الطويل خلال المنطقة الجبلية والرملية غير المعروفة غرب طويق. ثمَّ يتغيَّر اسمه فيصبح وادي برك، وعندما يقترب من الحاجز ينشطر إلى جزأين كما يفعل وادي الدواسر في الجنوب، ومجاري نساح ولحا والعتش إلى الشمال من ذلك. ثم يعاود برك الظهور مجدداً مستجمعاً مياه سيوله ليلتقي بمجاري العقيمي وروافده المتعددة. لم يكن هناك ما يُميِّز الصخور العالية في نهاية الممر الضيّق، ولكنّ رفاقي أخبروني أنّه في أعلى الممر وخاصة عند النقطة التي يدخل فيها المجرى في الحاجز، ترتفع الصخور إلى سماوات عُلاَ في مهابة وجلال. رغم أنَّ الوادي من المناطق الرعوية المفضلة للبدو إلاّ أنّه لا يضمّ مستوطنات، وهو يُعد الحدود الجنوبية لمنطقة الفرع، وهو بلا شك الحد الشمالي للقبائل التي تتخذ من الأفلاج ديرة لها.

تفصل سلسلة تلال ضيقة منبع وادي برك عن وادي الفارعة الذي يبدو للوهلة الأولى كرافدٍ له رغم أنه في حقيقة الأمر ليس كذلك. يقوم حاجز يُرى تقريباً بتغيير سير مياه برك شرقاً في اتجاه السهل، كما يقوم بتجميع وتوجيه مياه تصريف

الهضبة المحيطة نحو شعيب الفـارعة الذي يصب عن طريق عدد كبير من الأخاديد في وادي النصبية القصير المتسع الذي يكتظ بالأشجار، والذي خيمنا في منبعه. إن وادي النصبـية جـزء لا يتجزء من وادي الفـارعة وهو يمثل ظاهرة طبـيعـية لم أرَ أعجب مـنها في كل الوقت الذي قـضيـته في الجزيـرة العربيـة. إذ يجري وادي النصبية لميلين أو ثلاثة في جزئه الأعلى مـوازياً لوادي برك ولا يفصل بينهما سوى ميل واحد. وفي حين أن وادي برك يجـري نحو الشرق، فإنّ النصبـية يجري في الاتجاه المعاكس مـخترقاً قلب طويق الصـخري بدلاً عن أن يتّبع خطّاً أقلّ مـقاومة نحو وادي بِرك. بعـد ذلك يتجه النصبـية ملتفتـاً نحو الشمال ليلتـقي بمجمع في منطقة الحـوطة، ومن ثمّ منطقة المجرى المتـحد شرقاً نحـو السهل ليعبـرهُ ويلتقي بوادي العقيـمي في إقليم الخرج. ابتداءً من الموقع الذي خـيّمنا فيه للمـبيت حتى الموقع الذي التقينا فـيه مجدداً بوادي الفارعـة بعد مسيرة خـمسة عشر مـيلاً نحو الشمال، يتخذ وادي الفارعة شكلاً نصف دائري في الهضبة ناحتاً لمجراه بعمق في صُمِّ الصـخور، ومن ثمَّ يجـد طريقه للسـهل ثانيةً في ذات الحـافة التي يبـدأ فيـها بالجريان في اتجاه معاكس.

فشل بعض رجالنا في اصطياد الحـبارى الأولى التي رأيتها منذ أن تركت تلال الصمـان وراء ظهري في الربيع. ومـا إن يئس منها الرفـاق حتى رأينا قطيـعاً من الغزلان يرعى أمامنا على البعد، وحبس أفـراد القافلة أنفاسهم وقوفاً على أرجلهم عندما بدأ صيـادونا عملهم، بيد أنهم عادوا ثانيةً خـالي الوفاض في حين اندفعت الطرائد الخائفة نـحو القفـار المهجـورة. كنـت قـد رأيـت في الصـباح البـاكـر في

ممر أحمرة طائرالحجل[1]، لكن الصيد أثناء السفر هو اصطياد في ظروف صعبة غير مناسبة ونادراً ما سارت الأمور لصالحنا في محاولاتنا. رغم أن النجاح في الصيد كان يملؤنا بالسعادة خاصة في تلك الأيام التي نفد فيها مخزوننا من الشاي والأرز وهي سلعة لا يمكن شراؤها في الإقليم الجنوبي، فهي ليست معروضة للبيع في متاجرهم. حتى التمر الذي ابتعنا في الغيل كان قد تسوّس وما كان يمكن إدخاله إلى الفم قبل عمليات فحصٍ متئدة. ومن بقية قائمة المأكولات كان لدينا ما يكفينا من الدقيق الذي يُمكن أن يُصنع منه خبز خشن، إضافة لما كان متوافراً في الجنوب من القمح الذي يُصنع منه «الجريش».

كان هناك طريق واضح المعالم يرتقي الهضبة من منبع وادي النصبية. وكانت تقاطعه في زوايا قائمة الممرات التي حفرت في الأرض من جراء سير قاطعي الحشائش من سكان مناطق الفرع الذين يغدون ويروحون عليها في رحلاتهم المتعاقبة لمراعي البياض من واحة الحلوه. كانت تسم قرية القويع الصغيرة في طرف الواحة الجنوبي أكوام من الحجارة على الجرف الصخري الشاهق. أمّا أودية الفارعة والمجامع في الحوطة، وحتى شعيب طرش، كل هذه الأودية مُحصّنةٌ تماماً ضد المرعى إلاّ لماشية أهل الإقليم فحسب. وهم من الشح بحيث يمنعون الماء عن البدو وماشيتهم، كما حدث قبل يوم أو يومين مع مجموعة القبابنة التي التقينا بهم في بئر بعيجاء إذ أبعدوا بخشونة، ومُنعوا من سقي إبلهم العطشى وخرافهم من آبار المنطقة. إنهم يخشون أن يعلمَ الآخرون مخابئهم الطبيعية التي يحتالون فيها على

(١) ربما من نوع Ortyogornis pondicerianus وقد يكون سيسي Sisi ، والأول هو طائر حجل عادي رمادي اللون يعرفه سكان الهند. (المؤلف).

العيش في طيات طويق. ويساعدهم على الاكتفاء الذاتي الخصوبة العالية لواحاتهم المحصنة ضد الاعتداء الخارجي بفضل ساحات الصحراء الشاسعة القاسية الخالية من الماء التي تحيط بهم، فلا يستطيع العدو أن يبقى فيها لمدة طويلة في انتظار تداعي دفاعاتهم القويّة.

عندما بدأنا سيرنا صباح اليوم التالي عبر المسار المطروق فوق الهضبة لم يكن إبراهيم قد قرر شيئاً حول ما يريد أن يفعله تجاه الوضع الحرج الذي وجد نفسه فيه بتذكيري إياه بضرورة إنجاز وعده. كان المشهد حولنا يمتدّ إلى الأفق من كل الجهات، وكانت الحافة لمنحدر طويق على بعد ثلاثة أميال منا إلى جهة اليمين مواجهة لوادي العقيمي، بينما امتدّت الهضبة نحو الغرب على امتداد أبصارنا وهي ترتفع بانتظام نحو الهيكل البعيد لعلية هناك في العمق. لكن كانت تظهر من آن لآخر ملامح للجروف الصخرية المجاورة للصدع العميق لوهد المجمع. وعلى مسافة أقل، لعلها على بعد ثلاثة أو أربعة أميال في الاتجاه نفسه بدا وادي الفارعة موازياً لمسارنا. كان المشهد إلى يميننا - أي في اتجاه الخرج - تسدّه سلسلة تلال شعارى الممتدة، وهي سلسلة منعزلة تقع خارج إطار طويق ويفصلها عنه نفود من الرمال يدعى كراضيّة.

عندما تحركنا دهسنا في الطريق خمس عقارب صغيرة وجدناها مختبئة في ظل شجيرة صغيرة، ثمّ لاحت لنا نخيل الحلوة في اتجاه الغرب من عمق وهد الفارعة. يبدأ الطرف الجنوبي لواحة الحلوة في قرية القويع، وتمتدّ في خطٍّ مستمر من البساتين الغنية لأربعة أو خمسة أميال حتى مسافة قريبة من بداية النخيل للمدينة الرئيسة الحوطة. توجد في هذه المسافة ثلاث قرى مهمة هي: القويع

والحلوة والعطيان، وبها عدد كبير من القصور المنعزلة، ويسكن هذه القرى ما يقارب ٥٠٠٠ نسمة معظمهم من قسم آل مرشد من بني تميم، وهو قسم يساوي من حيث القوة في واحة الحوطة أبناءَ عمومتهم قسم آل حسين الذين يفوقونهم عدداً. هناك أيضاً عناصر من بني خضير يكثر وجودهم في الواحتين وكذلك في الحريق. أمّا العناصر الغالبة في الحريق فهم قسم الهزازنة[1] التابعين لقبيلة عنزة. وآل خثلان الذين يرجعون إلى قبيلة سبيع.

عند هذا الموقع كنا لا نزال بعيدين عن واحة الحلوة، وكنت متأخراً عن الركب أتملّى في المشاهد من حولي عندما لاحظت أنّ إبراهيم وابن جلهم اللذين كانا راكبين في المقدمة التفتا فجأة مغيرّين خطّ مسارنا في زاوية قائمة لخط السير الذي كنا فيه إلى ناحية الغرب. حدث ذلك عند بلوغنا رابيتين صغيرتين تسمّيان بني دريْم. عندها أسرعت للأمام على أمل أن يكون تغيير المسار هذا يعني تغييراً في الخطط، ولكني اكتشفت أن الغرض منها لم يكن أكثر من أن يعطيني الفرصة لألمح قرية الحلوة، كان الوادي على بعد ميل تقريباً من ذلك الموقع، وكنا نستطيع النظر إلى بعض أجزاء القرية فقط، ولكن بالنظر أمامنا تمكنت من رؤية وهد المجمع ولمحت مدينة الحلّة في موقعها وسط النخيل بالقرب من ملتقى الواديين.

لم تكن شهيَّتي تأبى المزيد، واستجاب إبراهيم - مع إظهار بعض التوتر - لضغطي حتى وافق على استمرار سيرنا بطول الجرف الصخري حتى بلغنا مصدر أخدود عميق يسمّى شعيب مرهج، حيث توقفنا للإفطار، واقتيدت الإبل إلى الأسفل للسقيا في قصر في أدنى الأخدود. انتهزت فرصة التأخّر هذه لأذهب

(١) المفرد هزاني. (المؤلف).

لبروز ذي موقع ممتاز يطل على الوادي، وهناك استمتعت بمنظر لبعض أجزاء مدينة الحوطة ولجزءٍ من مدينة الحلّة العظيمة. هذا كلّ ما توّفر لي من منظر لأرضٍ يسيل فيها اللبن والعسل ولا أرى نفسي زائراً لها.

يلتقي شعيبا مرهج والفريع في فناء عريض على بعد ميلٍ من مصدر الأول، ومن هناك يمكن أن تُرى مدينة الحوطة، لا يفصلها سوى ميل واحد من الطرف الشمالي لبساتين نخيل الحلوة. بين تلك النقطة والموقع الذي يلتقي فيه الفريع والمجمع توجد غابة كثيفة من النخيل. كان هناك جزءٌ من هذا المنظر قد حجبه جرفٌ صخري عال، ومن طرف ذلك الجرف بدت أجزاء من المدينة غير المسوّرة مدينة الحِلّة. كانت الحلة غير مسوّرة لأن طبيعة المنطقة حبتها بكل التحصينات التي تحتاج لها في شكل جروف صخرية كما الأبراج على جانبي الوادي. وكانت تنتشر أمام المدينة في الفناء العريض قصور متفرقة، وقرية أو اثنتين مهدمتين. لاحت إحدى القرى الصغيرة في طرق المنطقة متهدمة تماماً ومهجورة. وبجوار تلك القرية الصغيرة وتحت الجرف الصخري الشاهق الذي يكوّن الجانب الأيسر للفريع يقع قصر ابن خُريّف، أمير قسم آل حسين، وفي المرهج نفسه كانت توجد نخيل أبوتيوس حول قرية صغيرة تحمل ذلك الاسم، وكان مخيّمنا بالقرب من هذه القرية بجوار قصر شعبه في بستان صغير، حيث كانت إبلنا تستقي.

من واقع الجزء الذي رأيته من مدينة كلّة من على البعد، ومما جمعته من معلومات في ذلك الوقت من رفاقي، فإن المدينة تغَطّي مساحة طولها ثلاث أرباع الميل وعرضها - في أوسع أجزائها- حوالي ٣٠٠ متر، وهي بالتقريب بيضوية

الشكل وتتكوّن من منازل طينية ذات مظهر متواضع، بلغ تعداد المدينة حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة، ولكن إن تحدثنا عن المنطقة كلها فلا بدّ أن تعدادها يبلغ ٢٠,٠٠٠ نسمة كما أخبروني. وفي أدنى المدينة في موقع التقاء شعيب السُّلاميّة مع الفارعة تقع قرية يسكنها قسم آل حسين وتسمى عميريّة، ولقد لمحتها لمحة خاطفة بعد أن عاودنا المسير بقليل أثناء عبورنا للشعيب.

أسجل على مسؤولية رفاقي أنّ ذلك الجزء من المنطقة- وهو الجزء الأعظم منها - والذي يقع في وهد المجمع قبل التقائه مع الفارعة يمتدّ لمسافة سبعة أو ثمانية أميال حتى نقطة تتقارب فيها الجروف الصخرية على شاطئ المجرى ليصير جدّ ضيقاً. كان هناك شريط من نخيل كثيفة حول هذه النقاط، وكانت تحتل أعلى الواحة قرية كبيرة هي قرية بُرَيْك التي يسكنها جماعة من قسم آل مرشد.

ولمسافة عدّة أميال بعد ذلك، كان الوهد خلواً من الزراعة ومن المستوطنات حتى مدينة الحريق التي تقع في ملتقى ستة شعيبات تنزل من المرتفعات المحيطة وتكوّن نواة المجمع، وفيها مساحة كبيرة مغطاة بالنخيل. تتكوّن مدينة الحريق من مدينة مركزية وقريتين يصغرانها وعدد لا يحصى من القصور ويسكنها مجتمعة حوالي ٧٠٠٠ نسمة. وفي أدنى الموقع الذي تلتقي فيه الفارعة والمجمع يصير اسم الوادي الفرع أو ببساطة الباطن، وتضمّ قليلاً من البساتين المتفرقة، وبعد ذلك تخنقها التلال الرملية التي تنبسط على سهل العقيمي إلى ما بعد الطرف الخارجي لمنحدر طويق.

وفقاً لإفادة ابن جلـهم، فإن الحريق هي أقدم مستوطنات الـفرع، ولقد كانت مركزاً جيداً للزراعة في وقت مـضى، في ذلك الوقت الذي كان فيه وادي المجمع عارياً تماماً مثل وهد الضبيعة في الوقت الراهن. ولعله كان يسكن الحريق في ذلك الوقت بقايا من بني تميم الذين تمّ إجـلاؤهم -فيما مـضى من زمان- من ديارهم بواسطة المغيرين من عـنزة، وعندما وجدوا الماء متوفـراً هنا -رغم أنه على أعماق بعيدة، إذ إن آبار الحوطة قد تبلغ عمق سبع عشرة قـامة- أقاموا مستوطنة وسموها باسم مستوطنتـهما الأصلية: حوطة الحريق. وقدّر لـهذه المستوطنة بمرور الأيام أن تحلّ محل المدينة الـقديمة كعاصـمة للأنحـاء. والحريق هو اسم يفتـرض أنّه يحيي ذكرى حريق هائل شبّ في الماضـي البعيد، ولقد بدأت هذه الواحـة تضمحل في السنوات الأخيـرة، ولكن الحوطة مـا زالت في عنفوان شبـابها رغم أنّهـا تضرب بجذورها في تاريخ قديم قد امّحى.

عندما عاودنا المسير عبر الهضـبة هبطنا نحو شعيب السلميّة عن طريق ركامين من حجارة تسمى «أبو اثنين»، عبرناهما لنرتقي مجدداً إلى الهضبة عبر طريق وعر شديد التحـدر. كانت حافة منحـدر طويق الآن قريبةً منّا، وكان نفـود أجنبة يمتدُّ على نفس خط كثبان كراضيّة في الخط القريب من سلسلة تلال شعارى. وبعد أن سرنا قليلاً أسفل أخدود أم الحيران بين جروف صخرية يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً، وصلنا إلى الوادي الرملي المسمّى أم الأديان، وبعدها إلى شـعيب الفرع في الموقع الذي يصدر فـيه الشعـيب من الهضبة إلى السـهل. وخيّمنا للقـيلولة تحت سلسلة جبـال منخفضـة ممتدة، كانت تشكل لنا الحـدود الشماليـة لإقليم الفرع، وفي فم الوادي كانت الـكثبان الرمليـة مغطاة بوفـرة نباتيـة من كل الأنواع: السنط والمرخ والأثل والرحاء والشيح والعفر وغيرها.

٥- حافة جبل عليّة:

في رحلة ديسمبر (كانون الأول) الماضي وقفنا هُنيهة فوق قمة وهد السقطة لنرى المشهد الرائع قبل أن نهبط إلى وادي ضرما. كانوا قد أشاروا لي هناك بعيداً ناحية الجنوب لقمّة بارزة مسطحة، تسمو عالياً فوق الكتلة الجبلية المحيطة بها. كانت تلك الإشارة حينها لجبل عليّة.

لم تكن الفرصة الآن سانحة للاقتراب من تلك الجروف العظيمة التي كانت قمتها ترتفع لخمس مئة قدم أو أكثر فوق حافة جرف طويق، وهذا الأخير نفسه جرف شديد التحدّر يسمو هو الآخر لارتفاع ٦٠٠-٧٠٠ قدم مواجهاً للسهل الغربي. ويبدو لي أن قمّة جبل عليّة سمت لارتفاع لا يقل عن ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر. كانت هضبة طويق تنحدر بشدّة من الجانب الشرقي لذلك الجبل حتى حافة سهلي العقيمي والخرج.

كانت الهضبة كلها - بما في ذلك مرتفعات علية - من حدود وادي الفرع في الجنوب حتى العتش آتس العظيم في الشمال تُسمّى العارض، وهو الحاجز بين الصحاري الغربيّة ومراكز الحضارة المرتبطة بأسماء حنيفة واليمامة ومنفوحة والرياض والدرعية والعيينة. ويتكوّن إقليم العارض في الوقت الراهن - إضافة لأقاليم ما وراء طويق (أي غرب المحمل وضرما) من ثلاثة أصقاع، هي تحديداً: أعالي المحمل التي تخرج عن الإطار الذي يتناوله هذا الكتاب ويحدها من ناحية الجنوب وادي حنيفة. والصقع الثاني هو وادي حنيفة الذي ينتهي من ناحية الجنوب في الحاير وفي خط شعيب لحاء. والصقع الثالث هو جبل علية نفسه. ومن هذا

الصقع الأخير الذي يخلو من السكان في الوقت الراهن لم أرَ سوى الأطراف الخارجية لجوانبه بحيث لا أستطيع تقديم وصف عام له. ولكن استناداً على شهادة مترك الذي جاب هذه الأنحاء مع أفراد قبيلته قبل سنوات عديدة في عهد شبابه، وقبل أن يلتحق بِخِدْمَةِ ابن سُعود، فإن الإقليم مرتفع، غير مأهول بالسكان وتتخلله بعد فواصل وهاد جبلية عميقة تتشعب من الإقليم المرتفع في جوانبه الغربية. يتجوّل في هذه الوهاد رعاة آل شامر بقطعانهم آمنين في ثنيّات الجبال بيد أنهم كانوا في الأيام الخالية، في عهود غياب الأمن والنظام يغيرون بانتظام على القوافل المارة بين الخرج والإقليم والجنوبي. وكان مترك يخبرني عن دَوْرِهِ في بعض هذه الغارات كلما مررنا بموقع يُذكّره بها، إذ كنا نتتبع طريق القوافل مارين بالسهول وبالقرب من مصادر المجاري حيث كان يختبئ قطاع الطرق انتظاراً للانقضاض.

حكى لي مرة: «كان ذلك في أحد الأيام الممطرة وكنت أركب وحيداً بحثاً عن الرزق، ورأيت أمامي راكباً منفرداً يغطي رأسه بعباءته لتحميه من المطر. لم يرني ولم يسمعني وأنا أقترب من خلفه حتى مِلْتُ بجسمي عن السرج لأمسك بذراعيه على جانبي جسمه. استسلم الرجل خوفاً على حياته، بينما أخذت أنا كلَّ ما كان عنده وكان سعيداً بأن تركته يرحل. هذه هي الطريقة التي كنا نكسب بها رزقنا في تلك الأيام. والله لقد نشأت كقاطع طريق، ولكني الآن والحمد لله والشكر من بعده لابن سعود تركت هذا الطريق. ساد الأمن الآن في البلاد ويلقى قطّاع الطرق أقصى العقاب. الآن لنا طرق أخرى لكسب العيش حيث إنه قد رحّب بي ابن سعود في خدمته. إنه يستخدم أمثالي لحمل رسائل مهمة عبر

الصحراء إذ أنّ أهل الحضر لا يستطيعون السفر لمسافات طويلة دون طعام وماء مثل ما يستطيع البدو».

كما أخبرني مترك أيضاً بأنّ مرتفعات عليّة تعجّ بالفهود التي تفتك بالقطعان الآمنة في مراعيها. وحكى لي أنّه جلس يوماً مع رفيق له على حافة صخران وهما يشاهدان اقتتال فهدين، وانتظرا نجاح أحدهما في قتل غريمه، وهكذا قضيا وقتاً من الإثارة حتى قفز عليهما فهد جريح مطبقاً على ذراع مترك قبل أن ينجحا في إبعاده باستخدام المدي. وأخبرني أيضاً بوجود الوعول في ثنايا هذه المرتفعات.

تغيَّر الطقس كثيراً نحو الأسوأ منذ أن خلّفنا مرتفعات الأفلاج من ورائنا ظهرياً، وفي هذا اليوم على وجه الخصوص بلغت قراءة مقياس الحرارة في الظل، تحت شجرة سرح ظليلة في منتصف الامتدادات الرملية للوادي المتوهج بأشعة الشمس التي بلغت ١٠٧ درجات فهرنهايت في الساعة الرابعة عصراً، أي عندما عاودنا المسير. وقبل ذلك قاربت ١٠٩ درجات. ومما زاد الحال سوءًا رياحٌ جنوبية لم تتركنا لعدة أيّام بعد ذلك رافعةً الحرارة لدرجة ١١١ْ و ١١٢ْ. ولعلّ ارتفاع درجة الحرارة نتج جزئياً عن التغيير في اتجاه الريح، ولأننا هبطنا لأرض منخفضة. ولكن ابن جلهم أخبرني أنّ الإقليم شمال الأفلاج هو أكثر حرارة من الأقاليم الجنوبية في كلّ وقت طوال فصل الصيف.

تتبعنا مهد شعيب الفرع بطول حافة السهل الذي يحدّه منحدر طويق من ناحية وخط نفود أجنبة من الناحية الثانية. يمتد الفرع - ابتداء من هذه النقطة - بعرض السهل متتبعاً انحناء النفود ليلتقي بالعقيمي، بينما يمتد رافد آخر ويسمى السوط

بمحاذاة حافة منحدر طويـق لمسافة ما، قبل أن يغيّر اتجاهه ليلتقـي بمجرى العقيمي في واحة الدلم.

ينضمُّ أول الروافد النازلة من منحدر طويق، وهو أم سُلَيْم، للسوط قبل موقع التشعّب مباشرة. بعد ذلك بقليل بلغنا مجمـوعة كبيرة من المباني المهدمة لما كانت مستوطنة في الأيام الخالية، ولكن لا يعلم الناس شيئاً عنها في هذا الوقت. تشتق هذه المستوطنة المهدمة اسمـها: أبو صحرا، من اسم وهد صغير[1] ينزل من طويق ليلتقـي بالسوط في موقع أدنى، ولعلّ المـدينة تعود للأيام التي نشـأت فيهـا قرية مـاوان التي بلغناها في اليـوم التالي. ولكن الجـهل التـام عن تاريخهـا، وغيـاب الأساطير المرويّة عنهـا يجعلنا نعتقـد أنّ بناة هذه المستوطنة عاشوا في عـهد سابق لقدوم السكـان الحاليين لهذه المناطق، ولـكن ليس بالضرورة أن يكون هذا العـهد ضارباً في جذور التاريخ.

نصبنا خـيامنا في تلك الليلة في مـصب شعيب عُـشيْران، ثمّ سـرنا في اليوم التـالي في وادي السوط. ويقع بين هـذا الوادي وبين شعـيب الفرع - الذي كـان يتباعد سريعاً- صقعٌ من المرتفعات العارية، وهوامتداد لمنحدر طويق. عبرنا مصبّات الوهاد المتعددة الجاريـة نحو الوادي، عبرناها واحداً إثر آخر، وهي عُـشيرية وقُرَيْنة وأبو فريدة وقحلول وقرّادة وأبو فهيـد وأم نخلة وطرش، حتى بلغنا مجرى السيول المغطى بالحصـباء، فمـجرى أُثيلان (وثيـلان) وهو أهم رافد للسوط ويجـري نحو الدلم من وراء سلسلة تلال خشم الكلب، وهذا أيضاً مـعلم بارزٌ من معالم رحلتي في شقها الأول نحو الجنوب.

---

(١) يلتقي بهذا الوهد قبل بلوغه السوط مجرى صغير آخر يسمّى حملان . (المؤلف).

كان كل الوادي بالقرب من مصب شعيب طرش مغطىً بأجمة كثيفة من أشجار السنط والسرح والسدر وأشجار أخرى، وبوفرة من الحشائش. وكانت هذه المنطقة هي الحدود الشمالية الفاصلة لمراعي الفرع. هذه الظاهرة التي تحتكر فيها جماعة بعينها مراعي خاصة بها هو أمر نادر الحدوث في الأقاليم الشمالية في نجد، حيث إنّ ابن سعود فقط هو الذي يستمتع بهذا الحق في بعض المناطق مثل منطقة الخفس، ولكن هذه الظاهرة منتشرة في الجنوب، ومثل هذه الأراضي الرعوية المحتكرة تكون حقّاً للجماعة وليس لأفراد.

يغذي وادي أُثيلان عددٌ من الروافد[1] بعد التقائه مع مجرى السوط، وكلّ هذه الأنحاء تشكّل أراضي رعوية ممتازة ويرْتادها قطعان الحيوانات من الخرج. لاحظت أثناء سيرنا طوال الوقت وجود أسراب من القطا والحمام تحلّق فوقنا، بينما شغل مترك نفسه بمطاردة أربعة غزلان لم يأت عائداً بواحدة منهنّ. كانت الغزلان قد لاحت أمامنا على البعد حيث كان الوادي يتسع ممتداً في شريط من الرمال[2] نحو السهل.

سرنا فوق نتوء[3] لهضبة طويق ونحن نغيّر اتجاهنا لاتجاه يميل أكثر نحو الشمال. وكان مجرى خشم الكلب، وكذا إقليم الخرج يلوحان بعيداً هناك عن يميننا. ولم يكن المنظر حولنا يوحي بشيء، ولم يكن لي همٌّ سوى أن أسرع قدر ما نستطيع للخروج من هذا المكان الخاوي، ولكنّ تفكيري لم يكن متوافقاً مع نوايا

(١) أبو حلفا وخمسة والسليم. (المؤلف).

(٢) تسمّى قصائم. (المؤلف).

(٣) كان يشق هذه أخدودان صغيران: دحلة القعود والمندسّة التي كانت تجري نحو أثيلان لتلحق به بعد حين. (المؤلف).

رفاقي الذين أجبروني بإلحاحهم أن نتـوقف في وسط أجمة طرش الغنيّة بالأعشاب رغم أنَّ الساعة كانت حينها السابعة، وكان الوقت مبكراً جداً للإفطار، ولكن بعد ساعتين شعر الجميع بالجوع وبدأت الهمهمات وسطهم. كنت أتقدّم الجميع وكنت قد مررت بمنطقة معشبة في وادي تُمَيْر الذي يمتد منحدراً بعرض المنحدرات اللطيفة للهضبة حتى يلتقي بوثيلان في السهل. عندها جاء مترك من خلفي وتخطّاني وقد دفعه زمـلاؤه ليقول لي: «انظر ذلك العشـب هو آخر ما سيصـادفنا قبل أن نصل لشعيب ماوان، دعنا نتوقف لنعـلف إبلنا بينما نتناول نحن إفطارنا». سألته: «وكم تبعـد ماوان؟» فأجـاب «والله سيحلّ وقت الظهـيرة قبل أن نصل للشـعيب. إنني أعرف هذه المنطقـة جيداً إذ أنني سافرت كـثيراً عبـرها وليس هناك عشب بين هذا الموقع وذاك». أصررت قـائلاً: «إن شاء الله سنأتي لأرض مـعشبـة بعد قليل من السير، وعلى أيّ حال إنّ الوقت باكرٌ جداً للقـيلولة، ولقد أضعنا وقتاً للرعي في شعيب طرش. فلا بد أن نسير لمسافة قليلة، وإن شاء الله سنجد مرعى بعد نصف ساعـة». كان توقعـاً جريئاً إذ أن السهل أمـامنا لم يكن يعد بشيء كـهذا، ولكنّي فرضت إرادتي وواصل الجـمع السير في صمت مـطبق. قدتُ الطريق وأنا أبحث عن دليل أدحض به ادّعاءات حُداة ركبنا والرفاق.

صار السطح المنحدر الممهد أكثر وعورةً كلمـا تقدمنا، وبعد عشرين دقيقة من حديثي معهم وجدنا أنفسنا في حافة مجرى سيول رملي عريض يصدر من مجرى تحفّه الجروف الصـخرية وينزل من ثنيات المرتفعات. كـان المجرى الرملي العريض مكسواً ما بين جـانبيه بأعشاب صحـراوية كثّة. التفتّ إلى متـرك قائلاً: «ماهذا؟» فأجـاب: «والله عشب!!». فقـلت له: «ألم أقل لك أن الله سيرزقـنا العشب في

الوقت المناسب، انظر يـا متـرك أنت دليلي وأنت رجل هذا الإقليـم ولقد كـذبت عليَّ. أتدري مـا سأفعله الآن؟ والله لن نـتوقف هنا ولا في أي مكان آخـر حتى نبلغ ماوان نفسـها. فلنتقدم وكفَّ عن الكذب. ما اسم هذا الشعـيب حتى أسجل الأعشـاب التي يحتويهـا؟» فأجاب مـرتبكاً: «والله يا صاحب لقـد مرّت سنوات طويلة منذ أن تركت هذه الأصقاع، ولم أزر هذا المكان من قبل، ولكن هو شعيب ماوان نفسه وليس شـيئاً آخر. لقد قمت بزيارة القصـو والبرك المائية في أعلى هذا الصقع ولكني لم أصل لهذا المكان من قبل». قلت له: «ولكنك رغم هذا، وأنت الذي تعرف هذا الإقليم جيداً، كلَّ حجر فيه وكل نبت يخرج من أرضه، قلت لي إنه ستمضي ساعات قبل أن نبلغ تُمَـيْر! يا مترك لقد كذبت عليَّ وأنت تعلم بأنك تخـدعني، وأنت فـعلت هذا بإيحـاء من إبراهيم، أنا أعلـم هذا. سترى كـيف سأعاملكم جميعاً من جراء فعلتك هذه».

بعد ذلك توقفنـا لنقضي عدة ساعات في ذلك المكان المـعشب قبل أن نواصل السير مـرتقين طريقنا في ذلك الشعيب نحـو مدينة ماوان المهدمـة التي كانت على بعد ثلاثة أميال، وهناك خيـمنا للمبيت. قلت لإبراهيم: «انظر هنا، من بداية هذه الرحلة حتى نهايتها كان الأمر يسير على نفس المنوال، لقد كنت تضع العراقيل في طريقي طوال الوقت. لقد عـفوت عنك مرّة إثر أخرى، لكنك لم تتغـيّر، تبحث دوماً عما يسبب لي الكدر. أنت تعلم أنّ ابن سعود ينتظر عودتنا بقلق لأننا تأخرنا في العودة ولكنك رغم هذا تزيد تأخيرنا يومـاً إثر يوم بتوقفك هنا وتوقفك هناك. لقد تعبتُ من هذا، والآن لتتحمّل المسؤولية وليكن عبء التأخير واقعاً عليكم. إن أصاب الإبل النصب اتركوها ترتاح، وإن كان هـذا يريحها فلنقض طوال يوم غد

هنا لعلكم تسيرون سيراً أفضل في اليوم الذي يلي». قوبل هذا القرار بمعارضة وكانت هناك محاولات عديدة لإثنائي عن هذه الفكرة، ولكني أصررت أن نقضي يوماً سعيداً - رغم حرارة الطقس - بجوار برك ماوان في وسط خرائب المدينة القديمة المهجورة. رغم أنّ العربي يكره أن يتعرض للنَّصَب من جرّاء السير المتَّصل ليومٍ طويل، لكنه يكتفي بوقفات قصيرة يتناول فيها القهوة من آن لآخر، ولكنه في الوقت نفسه يكره التوقف الطويل في الصحراء. عندما يسير العربي مسافراً يكون هَمّه هو العودة إلى داره. ولكنه يجب أن يفعل ذلك وفقاً لمنظوره، وفي العادة هو يفضّل أن يستمر في السير نهاراً وليلاً لمسافات محددة تتخللها وقفات للراحة. أحزنني أن مترك الذي كان حتى هذا الموقف صديقي الوفي من بين الجميع، سمح لنفسه بأن يُستَغَلَّ لتحقيق مآرب إبراهيم، لكنَّني أعلنت لكليهما أنهما لن ينالا نصيباً من العطاء الذي يستحقه الرفاق عند العودة للرياض، وحافظت على قراري. ولكنيّ لم آسف أن تمكنت بعد ذلك بشهور أن أحسن إلى مترك تعويضاً عمّا فقده في هذه الرحلة، وبعدها ضمنت خدماته إذ بقي بجانبي -تقريباً- طوال الفترة التي أقمت فيها بالجزيرة العربية.

كنت قد قررت أن أقضي يوم الراحة المقررة بأن أتجوّل في أعلى الوادي، وجُمعت الإبل لهذا الغرض استعداداً للجولة في انتظار استيقاظي صباح اليوم التالي. ولكن الرحلة الطويلة التي كانت أمسياتها قصيرة بسبب الاستيقاظ المبكر كل يوم - أنهكت قواي وقررت أن أرتاح ذلك اليوم، لذا كان تحرُّكي الوحيد هو أن قمت بجولة على الأقدام مرتقياً أعلى الوادي لمسافة لم تتعدَّ ميلاً واحداً، وعدت بعدها للمخيم متتبعاً قمة الجرف الصخري الممتد في الجانب الأيسر للوادي.

كان الموقع الذي خيّمنا فيه انبعـاجاً عريضاً للوادي، يضيق لعرض ١٠٠ ياردة في الطرفين، وكان أقصى مـا بلغه عرض ذلك الانبعاج هو ربع ميل تقـريباً. كان مهد الوادي مـغطى بالرمال في غالبه مع رقاع من التـربة الطفلية هنا وهناك، وفي هذه الرقاع كان أهل الحلوة يزرعون الحبـوب إذ كانوا يملكون -لسببٍ ما- الحقّ في زراعة هذه البقـاع من الوادي، كانوا يروون هذه الأراضي بمياه السـيول وأيضاً من عدد من البرك الدائمة التي ينبثق فيـها الماء من عيون تتدفق من تحت المهد الرملي. كانت هذه البرك أجمل معالم المكان، كمـا كانت هناك سلسلة من الجداول الضيقة التي ينتهي آخرها في بركـة متوسطة الأبعاد تقع بالقرب من مـخيَّمنا. علمت من بعض الرعاة الذين زاروا الموقع أثناء نزولنا به أنّ هذه البرك ينـضب معينها من الماء في نهاية موسم الصيف ولكن في سنوات الأمطار الجيّدة يبقى بهنّ الماء من الموسم إلى الموسم فيستفيد منه الرعاة والزرّاع.

لن نستطيع الإجابة عن التساؤل الذي يقول كـيف لم تستمر هذه المنطقة مكاناً للاستيطان فيما مضى من زمان؟ إن كثـيراً من هذه الخرائب في حقيقة الأمر بقيت على حـالهـا هذا لأوقـات طويلة حـتّى أنه لا تـوجد دلالات عـلى الناس الذين استوطنوا هنا في تلك العهود ولا عن الأسباب التي دفعت بهم بعيداً عن هنا.

تغطي غيـضات غنية الأجزاء العلـيا من الوادي، وتنمو فيـها وتنتشر أشـجار الحوْر القزميَّة وأشـجار الصفصاف ونباتات الحلفا، بينما كـانت المساحات المزروعة بالحبوب بواسطة المهـاجرين الموسميين كبـيرة جداً، وكان بجوار كل مجـموعة من الحقول مساحة لدرس الحبوب يغطّيهـا تبن المحصول الأخير. كما كانت توجد هنا وهناك آبار يصل عمـق الماء فيهـا لأربع قامات، وبجـوار إحدى هذه الآبار تُركَت

بعض معدات البذر لتبقى هناك حتى يعود أصحابها ثانية لاستخدامها. ولعلّ هذا يعطي دلالةً على أمانة البدو، رغم أنّ الأمر ليس هكذا طوال الوقت.

كانت بعض القصور تتوسط رقعة من الحوْر في أعلى الوادي، وكان أحد هذه المباني سليماً من الخارج، وبالداخل تراكمت فيه النفايا بسبب بقائه خالياً، وهو مبنى طيني يشد الانتباه نحوه ذلك الشكل ذو الأبراج الذي كان ينتؤ إلى الأمام قليلاً فوق الباب الرئيس. وكانت «المساليت»[1] - وهي فتحات- تحتلّ الجزء الأسفل من الشكل. وكان هناك قصر آخر على قمة الجرف الصخري الواقع على الجانب الأيسر، قصرٌ ضخم من الحجارة تمت الاستفادة بذكاء في بنائه من الحوائط الصخرية الطبيعية فصار أشبه بالقلعة الطبيعية إلاّ من الجانب المواجه للمدينة. أمّا القادم من ناحية الهضبة فلقد كان يرى بناءً صخرياً قوياً في مواجهته. وكان في أحد جوانب المبنى، وبين الصخور فلق عظيم بطول ٢٠ ياردة وعرض بضعة أقدام، وكان غائراً في الأرض؛ ولعله كان يُستخدم مستودع لحفظ مياه الأمطار لاستخدام القلعة.

لكن أهم أجزاء المستوطنة القديمة كان - فيما يبدو- قصراً أو لعلها كانت قرية صغيرة بُنيت على مدرجات فوق المنحدر على الجانب الأيمن للجرف ابتداء من موقع قريب من قمة الجرف وامتداداً لداخل الهضبة. وكانت جميعها محاطة بحائط صخري به كوّات لمراقبة الوادي والهضبة من كل جانب يُتَوقَّع أن يأتي من قِبَلِهِ الهجوم. انتصبت على أركان المبنى أبراج عظيمة، كما كانت في داخله بئر

(١) مفردها مسلوت. (المؤلف).

واحدة، أو اثنتين. كانت طبيعة هذا البناء تنبئ عن الأيام المضطربة التي عاشتها المدينة والتي استوجبت أن تكون المدينة محصنةً تماماً ضد الأعداء المغيرين.

حمل إلينا البدو الذين زارونا خلال اليوم أنباء عن رحيل تركي[1] نحو القصيم مع قوة من الخرج وضرما قوامها ٥٠٠ رجل ليكونوا نواةً للقوة التي كان عليها أن تغير على شمّر. وأخبرونا أيضاً عن قتال وقع في الخُرمة حينما اقتتلت قوّة تابعة «للشريف» مع محاربين من قبيلة سبيع يساندهم عناصر من عتيبة استجابوا لنداء العون الموجّه لتجمعات «الإخوان» في الرين والغطغط. جاءت الأخبار في البداية أن قائد قوة الحجاز كان ابن الشريف، ولكن وضح فيما بعد أنّ ذلك لم يكن صحيحاً. خلافاً لهذا، يبدو أنه لم تقع أحداث مهمة في الفترة الطويلة التي احتجبنا فيها عن مواقع الأحداث، غير أن جامعي الزكاة التابعين لابن سعود قد بدؤوا عملهم السنوي حيث أرسل ابن سويلم إلى أرض قحطان وابن زيد للخرج بينما كانوا ينتظرون بقلق عودة ابن جلهم لإرساله مجدداً إلى الوادي لذات الغرض.

في اليوم التالي وبعد أن قضينا يوماً كاملاً في خرائب ماوان تتبّعنا الشعيب الذي كان يلتف في آخره حول نتوء سلسلة خشم الكلب ليلتقي بأثيلان في السهل المقابل للدلم. لكننا سرنا بعيداً عن مساره هذا متجهين نحو الشمال متتبعين أطراف الأرض المرتفعة حيث كان الموطأ سهلاً. بعد أن عبرنا عُبَيِّد، وهو رافد مهم لماوان، ارتقينا الأرض المرتفعة مجدداً حيث تمتعنا من فوق الجبال بمشهد سهل الخرج حتى سلسلة فرزان البعيدة.

---

(١) الأمير تركي بن عبدالعزيز المعروف بتركي الأول والذي مات عام ١٣٣٧هـ بسبب الحمى. (المراجعون).

بلغنا الآن، ثم عبرنا المهد الصخري العريض لشعبي سُويْس الذي يجري بين الجروف الصخرية العالية ليلتقي مع مجرى العَيْن. ونزلنا قليلاً لتناول الإفطار في منخفض ضحل يُسمى إرزة، وكانت تسم المنخفض شواهد حجرية لقبور ضحايا حرب قديمة دارت بين زعماء آل شامر الذين كانوا يجوبون عليّة للمرعى وبين مغيرين من بني هاجر الذين يعيشون الآن في صحاري الأحساء. أما الآن فإن آل شامر هم ملاك هذه الأصقاع دون نزاع بينما يحتل بنو عمومتهم المطرة سفوح الجبال من مرتفعات الأفلاج وبنو عمومتهم العرجا يحتلون المرتفعات الواقعة إلى جنوب السليل حتى موقع متقدم من نجران. هذا هو التوزيع القبلي الحديث الناتج عن انتشار العجمان في الأزمان السابقة نحو الشرق نحو الأحساء، إذ أنّ هذه الأقسام الأربعة يدّعون صلة قربى تربطهم جميعاً.

بينما كنا نتناول إفطارنا مرّت بنا جماعة من بدو آل شامر مع قطعانهم وأخبرونا أنّ ابن سعود بعد استلامه تقرير إبراهيم عن استقبالنا في الوادي قد اتخذ الإجراءات اللازمة ليصون سطوته وسلطانه هناك.

بعد أن تحركنا بقليل، بلغنا شعيب العين الذي يجري نحو السهل الواقع بين نعجان والضبيعة. وهذا الشعيب مثال جيّد لوهاد طويق إذ أنَّ مهده العريض المغطّى بالحصباء يتلوّى متتبعاً الوادي المحاط بالصخور الترسبية العالية التي يبلغ ارتفاعها مئة قدم. هبطنا نحو شعيب العين هذا عن طريق أخدود له جانب لطيف التحدّر، وتتبعناه لعدة أميال حتى بلغنا شعيباً صغيراً آخر هو شعيب غوينم، وارتقينا إلى الهضبة مجدداً عن طريق هذا الشعيب الأخير. كنّا نرى في ارتقائنا ذاك - بعد فواصل - مجموعات صغيرة من الخيام السوداء التابعة لبدو آل شامر

الذين كانـوا يؤدون فريضة الصـوم في صبـر. كانت خـيامهم منصـوبة في ظلال شجيـرات السنط والحوْر بالقرب من البرك الضحلة التـي ما زالت نديّة منذ موسم الأمطار السابق. في حقيقة الأمر يمكن الحصول على الماء في هذا الوادي دون كبير عناء، إذ يكفي نبش الرمال لعمق قدم أو قـدمين من الوادي الرملي للحصول على ماء وفير، وكانت لكلّ مجموعة خيام حُفرُ الماء الخاصة بها على مقربة منها. كانت بعض أجزاء الوهد مغطّاة بأعشاب كثيفة وبالطرفاء، وفي هذا الخضم الأخضر لمحنا غـزالاً لكنه كان سـريعاً واتخـذ الجانب المنـحدر نحـو الوادي سبـيلاً للنجـاة من مطاردتنا. كان أكـبر هذه المجـموعات مكوناً من حـوالي عشرين خـيمـة يسكنها السود، وكان رجال هذه المجموعة متجـمعين تحت أجمة من أشجار الحور بالقرب من بركة صغيرة يقضون النهار بين الحديث والنوم.

كان بالجروف الصـخرية على جانبي شعـيب غوينم فتحات أشـبه بالمغارات. اتخذنا إحـداها مكاناً للمقـيل بعد أن سقـينا إبلنا من ثقب ماء احـتفر حـديثاً في مصب الشعـيب. كان ارتفاع الهضبة في ذلك المـوقع الذي ارتقينا يبلغ ٢٠٠ قدم فوق مـستوى النظر، وكنّا قد بلغنـا أعلى الهضبة سـالكين طريقاً متعـرجاً. بدت أمامنا الآن مرتفعـات متموجة تموجاً لطيفـاً، سرنا فيها طوال فترة مـا بعد الظهيرة حتى نصبنا خيامنا للمبـيت في إحدى المنخفضات الثلاثة[1] التي تتجمع بعد حين في المنحدر لتكوِّن شعـيب بلجان، وهو آخر روافد العين من ناحية الـشمال كانت طيات الهضـبة من ناحية اليسـار تمتدّ بعيداً طيّة إثر أخرى حـتى سلسلة تلال عليّة

(١) تُسمّى جماعياً بلاجين. (المؤلف).

العالية. وكان يكسر امتداد سلسلة علية فتحة ضخمة تحيط بها قمم صخرية متعريّة. ولعلّ شعيب نساح يدخل عبر هذه الفتحة ليصل الأخدود الذي يصير مجرى له بعرض الهضبة، بيد أنني لم أجد ما يؤكد زعمي هذا. وشعيب نساح هذا من الوهاد العظيمة التي تعبر الهضبة. كانت تسمُ سطح الهضبة بيننا وبين عليّة صدوع كثيرة تكوّن منابع الوهاد الصغيرة المتعددة التي تنتشر من أعلى العين. بينما كان المنحدر ينحدر بلطف عن يميننا في اتجاه الخرج ولمسافة خمسة أو ستة أميال. شكلت المعالم البارزة مثل أبو ولد وخشم الكلب من ناحية، وسلسلة فرزان وبعض الروابي من ناحية أخرى، وشكلت روابط طبيعية مع الإقليم الذي عبرناه في المراحل الأولى لرحلتنا. ولاحت على البعد من وراء سلسلة فرزان الجروف الصخرية وأراضي الجبيل المرتفعة التي تنتهي في الشمال في منحدرات خشم هيت العظيمة.

ارتقينا صباح اليوم التالي الهضبة متتبعين مرتقىً هيناً من منخفضات بلجان، ثم انحدرنا مجدداً بلطف لنجد أنفسا في حافة شعيب نساح الذي دلفنا إليه عن طريق وهد سدير الصخري، وكان الشكل المخروطي لأم الرغيبة يلوح في الجانب الأبعد من شعيب نساح في الطرف الغربي لسلسلة تلال فرزان التي تكوّن الجانب الأيسر للشعيب.

كان عرض المهد الرملي لنساح حوالي ميلين يجري بين السلاسل الصخرية المنخفضة التي تحدّ مجراه. وفي داخل نساح كان هناك مجرى سيول رقيق أرضه طينية متماسكة يجري بين الغرب والشرق، بين فتحة عليّة التي ذكرتها آنفاً وبين الدلتا العريضة التي تشكل مدخل نساح في سهل الخرج. ارتقينا الطريق المحدد

المعالم طبقة إثر طبـقة حتى بلغنا القمة وصرنا على مـرأى من رابية عبدة وسلسلة تلال الزويليات في الطرف الأبعـد لوادي حنيفة. قطع مسارنا طـريقٌ يقود لبعض الآبار في شعيب بعجياء الذي بدا وهده العميق إلى يسارنا يتلوى عبر الهضبة نحو وادي حنيفة هبطنا من رابية عبـده ولم تكن الإبل تسير بل كانت تنزلق وهي تهبط أسفل الرمال المتراكمة في جانب شديد الانحدار، وتوقفنا للقيلولة وسط شجيرات شوكية - كانت تكثر في المنخفض بجوار مجرى بعيجاء الذي كان يكثر فيه الحرمل والرمث ونباتات أخرى، وتحدُّ جانبيه الصخور. كان عرض المنخفض يبلغ حوالي ٢٠٠ ياردة، تتبعنا فـيه شريطاً ضيقـاً مليئاً بالحصبـاء حتى بلغنا منحنى لاحت لنا بعده نخيل الحـائر. وبعد لحظات قليلة كنا في وادي حنيفـة، وعدنا لرؤية المشاهد المعتادة للواحة التي لم يطرأ عليها تغيير منذ أن غادرناها في أول الصيف. انكمش حجم البركة الـوسطى كثيراً وأصبحت ثمار الـنخيل أقرب شبهاً بالتـمر مقارنة بما كانت عليـه، وانتشرت هنا وهناك خيـام سبيع السوداء وقـد تجمعوا لأداء فـريضة الصوم ولموسم خراص التـمر. فيما عدا هذا كـانت القرية نفسها وبسـاتين نخيلها والقلاع التي تعلو الجروف الصـخرية، كانت كلها على حالها السـابق وكما كانت على مرّ العصور، وكما ستبقى مستقبلاً على مرِّ الأجيال.

كانت الـليلة الأخيـرة في رحلتنا، وقمنا بإرسـال الرسل لإخطار ابن سـعود بقدومنا. جـاء إبراهيم إلى خيـمتي بعد العـشاء ليعـقد صلحاً مـعي، ولكن كان المستقبل أمـامي وكنت مُصراً على ألاّ يكون لإبراهيم علاقة بسفري وعـودتي فيما يأتي من أيام. ولتحقيق هذه الغاية كان لابد من اتباع أسلوب التحفظ الذي اتخذته منذ حادثة ماوان نحو قادة المجموعة، ولقد أتت هذه السياسة أكلها أثناء سيرنا في

ذلك اليـوم. بينما كنا نسـير التـفتّ لابن جلهم على مسـمع من إبراهيم ومـترك وطامي والآخرين بسؤال طرحته لأرى ما إن كـان حديثي الصريح معهم في ماوان قد أدّى لنتـائج، قلت: «كيف يجـري طريقنا بين الحاير والرياض؟» فـأجاب دون تردد: «والله مع الوادي». بالطبع كـان همهم الأول العـودة لدورهم سريعـاً رغم علمهم برغبتي في رؤية إقليم لم أكن قـد رأيته من قبل. ولكنني ألححت: «ولكن أنا أفضّل أن نسلك طريقاً آخر، إذ سـبق لي أن رأيت الوادي وكل ما فيه» وكانت الإجابة: «لا ولكن الطريق الوحيد مـن الحاير إلى الرياض هو عبر الوادي، إلاّ إن ذهبنا إلى لحاء ثمّ إلى ضرما ومن ثمّ نعود عن طريق ممر أبا القد».

احتفظت برأيي لنفسي في ذلك الوقت تجـاه تلك المؤامرة التي كانت تحاك لئلا أحقق خطتي، ولكن عندما جاءني إبراهيم في المساء متكلفاً الابتسام وخجلاً بعض الشيء يهنئني بختام مـغامرتنا العظيمة بسلام لم أتردد في أن أنتـهز هذه الفرصة، فـقلت له: «يا إبراهيم أنا أعلم أنّ هناك طريقـاً آخر يـقود من هنا للرياض فـوق الهضـبة خـلافاً لطريق الوادي، وباتّبـاع ذلك الطريق سأعود عـلى أي حال، إلى الرياض في معيـتكم أو دون أن تصحبوني، لا أهتمّ، وإذن كن عـاقلاً ودبّر الأمر على ما أشتـهي». وبدأ حديثه مدافـعاً: «والله لقد سمعت الـيوم أنه لا طريق آخر غـير طريق الوادي ولا يعلـمُ أحدٌ منا عن وجـود طريق آخـر، ولكن هناك بعض الرجال من القرية يشربون معنا القهوة وسأذهب لأستعلم منهم». وعاد بعد لحظات بالمعلومات بأنّ هناك طريقاً ولكنه بالغ الصعوبة والوعورة، يجري فوق أحد أخاديد لحاء ثم يرتقي الـهضبـة. أجبتـه: «فليكن الأمر كذلك، سـأذهب بذلك الطريق. وهكذا تم الاتفاق على أن نذهب جميعاً عبر ذلك الطريق.

وفي فجر اليوم التالي سرنا عبر المنطقة مرتقين وهدها العظيم الذي كانت تسمه في أطرافه الجروف الصخرية العالية وتزينه رقاع النخيل، تهكمت منهم ومن عجزهم عن أن يخدعوني بأكاذيبهم. عندها أقسم طامي أنه لم يكن أحد منهم على علم بهذا الطريق الذي وصفه لهم أهل الحاير. فأجبته: «إذن كيف عرفت أنا بوجوده؟ وما أنا إلا غريب في هذه الأنحاء. كلا، بل أجمعتم أمركم خلال الأيام السابقة لتثبيط همتي بكذبكم والخداع. هل نسيتم مرعى ماوان والمناسبات الأخرى التي كذبتم فيها عليّ؟ ألم تلاحظوا أنني أدوّن كل يوم ما أراه وأسمعه؟ اسمعوا لما سأقوله لكم لقد كان واحد منكم هو الذي أخبرني عن وجود هذا الطريق عندما أتينا الحاير للمرة الأولى قبل شهرين، وهذا مكتوب في مدوناتي، وهكذا علمت بوجوده». أصابهم الهلع لما سمعوا ونظروا نحو من كان سبباً في هذا، ولكن مترك الذي كان فيما يبدو قد نسي أنه أخبرني بهذا قائلاً بأنه هو نفسه قد سلكه عدداً من المرات، أعلن الآن مدافعاً بأنه لا يعلم قط بوجود هذا الطريق وأنه قد يكون أخبرني عن طريق ضرما.

سألتهم: «حسناً أين حادي ركبنا؟ ألم تطلبوا من أحد رجال القرية أن يرينا الطريق إلى أعلى الأخدود؟» فأجابوا: «أنهم لم يجدوا من بين أهل القرية من يرغب في مصاحبتنا، وأنّ مترك سيستجلي حقيقة الأمر ليجد في ذلك الخضم من المتاهات الطريق الصحيح». وتلا ذلك تحركات لمسرحية غير جيدة قام بها الكشافون لمعاينة الفتحات والمخارج في الأخاديد للوصول إلى الطريق، وتحرك مترك في سرعة عظيمة نحو النقطة الصحيحة بغريزة القائد التي لا تخطئ في أصقاع يعرف كل شيء عنها. كانت مخلفات الإبل وبعض آثار أخفافهم في التربة الصلبة تقودنا لنرتقي نحو عنق ضيق تحف به الصخور الجلمودية ويجري نحو أعلى الأخدود إلى الهضبة المكشوفة في الخلف التي اختطت فيها قوافل الإبل طرقاً ملتوية. كان المرتقى صعباً واستغلوا ذلك ليدللوا على صدق رواياتهم في أن

الدرب غير مطروق، لكن لم يكن هناك ما يستطيعون قوله عندما بلغنا بداية الطريق الذي يؤدي إلى الرياض في خط مباشر فوق الهضبة، حيث انحنى نحو اليمين ثم استقام في اتجاه المنخفض العريض لوادي حنيفة.

كان الطريق يعلو وينخفض وفقاً للحال، خروجاً من أو دخولاً للشعاب[1] المنخفضة المتجهة نحو الوادي، بينما امتدت عن شمالنا قفار الهضبة العارية التي تسمها في أحد المواقع ثلاث رواب صخرية خفيضة تسمى كُسَيْعَان. حاول مترك الآن أن يكفر عن عناده السابق بأن أمدَّني بأسماء المعالم التي مررنا فيها من طريقنا لكنني أبديتُ شكوكاً حول صدق وأهمية معلوماته إذ أنّ هذه الزيارة - حسب زعمه- كانت زيارته الأولى لهذه الأنحاء. أبديت وجهة نظري هذه بطريقة لافتة للنظر بأن رفضت تسجيلها في مدوناتي. وهذا العجز في المعلومات حاولت تدارك تبعاته بأن قمت -كلما سنحت لي الفرصة- خلسةً بتدوين ما أخبرني به.

وفي النهاية، وبعد أن تقدمنا لاحت لنا في الأفق ظلال سوداء نشأت من بين الصخور وسلاسل التلال البعيدة. ولقد دلّني على ظهور نخيل العاصمة السعودية أمام ناظريّ صيحات الأذكار الورعة التي صدرت عن الرفاق. كان المشهد الهلامي يتضح قليلاً قليلاً كلما دنت خطواتنا من غايتنا، بيد أننا فقدنا المنظر ثانية بنزولنا لوادي حنيفة في الموقع الذي كنا قد توقفنا فيه في رحلتنا نحو الجنوب: شعيب بقرة. وهكذا تقدمنا إلى أعلى الوادي عبر بقايا الجزعة، ثم أول النقاط المتقدمة لقرية منفوحة: مزرعة مزعل، ثم تركنا المصانع عن يسارنا وتتبعنا حافة بساتين النخيل حتى منفوحة نفسها.

---

(١) عويجة وأمهات الفرائد وأم غار. (المؤلف).

التقينا قبل دقائق قليلة من بلوغ القرية بفارس على ظهر جواده وهو عبدالعزيز ابن ربيع الذي بعث به ابن سعود ليرحب بنا مهنئاً بسلامة العودة. وأخبرنا الرجل أنّ ابن سعود قد عقد جلسة الصباح وعاد الآن للقيلولة بداره وأنه سيستقبلنا في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، وحتى ذلك الوقت كان علينا أن نخلد لفترة من الراحة حيث كنّا، وفي حقيقة الأمر كانت التقاليد المرعية تفرض علينا ذلك، مؤجلين دخولنا للمدينة حتى يحين الوقت الذي يناسب مضيفنا. أحضر ابن ربيع لي معه حقيبة بها رسائل وصحف قضيت ساعات النهار القائظة وأنا أتصفّحها وأنا أتمتّع بأكل كمية وافرة من بطيخ[1] ممتاز تذوقته للمرة الأولى في تلك البلاد.

حان الوقت في النهاية لدخول المدينة، وبعد مسيرة قصيرة بعرض سلاسل التلال التي أحرقتها أشعة الشمس بين شقّي المنطقة، ثم بارتقاء مجرى سيول الشمسيّة الذي تتخلله الآن بكثافة الخيام السوداء للبدو الزائرين، بلغنا البوابة الرئيسة في جانب المدينة الشمالي الشرقي. عدنا إلى الرياض- بعد خمسين يوماً كاملة منذ أن ركبنا في اتجاه الجنوب - في يوم ٢٤ يونيو (حزيران) الموافق لليوم الرابع عشر من شهر رمضان، شهر الصوم العظيم الذي صادف في هذا العام كما يحدث مرة كل عدة سنوات أن تضمّن أطول نهار في العام، وهو ما يسبب للصائم أكبر مشقة لكنّه يجلب أيضاً قدراً أكبر من الرضا الروحي لمن يتبعون أوامر الله بكل دقة ووفقاً لما تمليه عليهم ضمائرهم الحيّة، كانت شوارع المدينة مهجورةً، وكان الغبار الكثيف يومض تحت أشعة الشمس الحارقة. ما أشبهها بشوارع مدينة مهجورة، بدت لنا الرياض هكذا ونحن نعبرها في صمت إلى حيث كان علينا أن ننيخ ركائبنا أمام المبنى الشهير: قصر ابن سعود العظيم.

---

(١) يسمونه جح أو حبحب. أما تسميات بطيخ، ورقّي المستخدمة في بلاد ما بين الرافدين فهي نادرة الاستخدام هنا. (المؤلف).